• بداية المعركة وصخب الانفجارات:

استيقظ العراقيون فزعين على أزيز الطائرات ودوي القنابل والصواريخ يوم الأربعاء 2003/3/19 م في الساعة الخامسة وثلاثون دقيقة بتوقيت بغداد عند صلاة الفجر، حيث أخذت حمم النيران تتوهج في السماء وتتعالى أصوات الانفجارات المدوية التي هزت بغداد وضواحيها.

إنه توقيت آخر للهجوم بنفس الأسلحة، وكما هي عادة المتحالفين راحوا يستخدمون التكنولوجيا لإلحاق الأذى بالعراقيين.

لقد جاءوا في هذا اليوم من جديد ليوقظوا أطفال العراق ويفزعوهم، ويوقظوا على هدير الشر نساء العراق وشيوخه، لقد عاودوا أسلوب عدوانهم بتوجيه موجة من صواريخهم المدمرة تعقبها متأخرة عنها بتوقيت معلوم أكثر من ثلاثة آلاف طائرة خصصت كلها لضرب بغداد.. كلمات قالها الرئيس «صدام حسين» في عدوانهم الأول عام 1991 م وخاطب بها الشعب العراقي عام 2003 م في أم المعارك.

هكذا بدأت المعركة...

كان قد سبقها معركة الحصار والتجويع مع ما رافقها من تراشق إعلامي وسياسي حتى وصلت الأمور إلى النحو المؤلم والمأساوي، بعد أن فقد طرفي النزاع السيطرة على زمام الأمور ليدفع الشعب العراقي جراءه ثمناً غالياً من دماء أبنائه.

لقد كان حريًّا بالحكومة العراقية حينها أن تفكر بأنها لن تبقى إلى الأبد وأن عمرها لن يمتد إلى المستقبل كله مهما عاشوا، وقد تعلمنا من التاريخ بأن العروش لا تدوم أبداً وللأسف لقد أعطت الحكومة الذريعة التي استطاع من خلالها الحلفاء تدمير العراق.

وكان حريًّا بالرئيس العراقي أن يعرف بأن الزمن يتحرك وأنه خلق لا ليخلد، وأن

قصة كلكامش وصراعه مع الحياة ورغبته الجامحة في الخلود الأبدي درساً كبيراً كان من المهم الاستفادة منه، ولكن أمام رغبة البقاء واللامبالاة بالوقائع ونسيان التاريخ كعبرة سقط مثلما سقط من قبل كلكامش، وكان واحداً من أقوى الحكام في تاريخ العراق القديم وغيره ممن سقطوا وهم يظنون أنهم يملكون العراق وصفة الخلود.

لقد أدرك العراقيون متأخراً أنهم ضحية مخطط منحرف سعت فيه أطراف عديدة لموته بلا رحمة لتدمر سبل الحياة بأكملها في بلاد الرافدين.

ونسي كل الأعداء أنه يستحيل قتل شعب يمتد عمره في عمق التاريخ أكثر من ستة آلاف سنة ولا يزال ينبض بالعطاء والأمل والحضارة...

لقد شهد اليوم الأول أصوات انفجارات مرعبة أقلقت فجر بغداد الجميل لشدة دويها وعصفها وكانت السماء مليئة بسحب الدخان الكثيفة التي تصاعدت بسرعة جراء حرق القوات العراقية لخنادق مليئة بالنفط الأسود الساعة الرابعة عصراً قبل بدء الغارات الجوية ليلة الأربعاء كي تحجب الرؤية عن الطائرات في كشف المواقع العسكرية المهمة.

أصبحت بغداد تعيش جواً خانقاً تشم فيها رائحة البارود الكريهة فضلاً عن الإنذار بامتزاجه برائحة الموت المرتقبة.

حتى الأشجار أيقنت أن الموت يحيط بها لذا أخذت تتراقص من أنين الخوف والألم وكأنها تستغيث.. وفي خضم ذلك المنظر الحزين لفت انتباهي طائر صغير يبحث عن مأوى آمن له ليختبأ فيه بعد أن شعر بأن السماء قد ضاقت به لكثافة النيران التي أحاطت بكل شيء، وسحب الدخان المتصاعد من لهيب الأرض المستعرة.

الصمت بدأ ينخر في جمال بغداد، والوقت يمر على الأهالي بثقل كبير، أصبح الجميع يرتقب الأحداث وعواقب هذه الحرب المدمرة والقلوب ترتجف خوفاً من خروج صاروخ توماهوك عن مدار هدفه ليصيب منازل الناس، الكل يرتقب بصمت ويتساءلون بقلق.. ماذا يجري وما سيحصل في الساعات أو الأيام المقبلة، وهم على يقين بأن شبح الموت يخيم على بغداد؟

ففي الساعات الأولى للقصف كان أهالي جانب الرصافة يتنفسون الصعداء في الوقت

الذي كانت فيه طائرات الحلفاء منشغلة بقصف المواقع الرئاسية وغيرها من المواقع المهمة في جانب الكرخ ولكنهم لم ينقطعوا عن الصلاة والدعاء لنجاة أهلهم هناك..

وفي المساء هز جانب الرصافة سلسلة من صواريخ كروز المجنونة وتوماهوك المرعبة التي ألحقت انفجاراتها دماراً كبيراً ببعض المنازل العائدة للمدنيين العزل.

وبقي الناس في منازلهم المعتمة يصلون.. ويصلون وبين صمت الكبار وصراخ الأطفال ولهيب العصف ورعد أصوات الانفجارات، كان صوت مؤذني الجوامع تهدئ من روع الناس، وتكبّر... الله أكبر لتزداد معها مناجاة الناس بالبكاء، والصواريخ تسقط هنا وهناك.. من كل الجهات ولا نعرف من أي اتجاه قدمت، وأين ستسقط.

حتى الكنائس أخذت تشارك الجوامع بالدعوات وتدق الأجراس للصلوات، صلاة للرب ليحل السلام وصلاة للأرواح التي تدفع إلى السماء..

الجميع يرفعون أذرعهم للدعاء ويجهشون بالبكاء كي لا تسقط السماء في بغداد..

صلاة للأطفال كي لا تتناثر أجسادهم الطرية وللنساء المثقلات بالأحزان والمواجع والآهات والدموع الجارية، وللشيوخ الذين أتعبتهم سنين الشقاء والبلاء في بلد كتب عليه الغم والعزاء..

بلد عرفناه من كتب التاريخ والجغرافية أرضه مليئة بالثمار الطيبات ويمتد فيه الخير على ضفاف دجلة والفرات.

كان أجدادنا يحكون عنها حكايات حزينة وكم عاشت في أحزان وسنين أليمة..

لقد عاشت هذه البلاد سنين طويلة يحسدها الغرباء في العلن والخفاء، قالوا عنها أرض الأنبياء، أرض الشفاعة والناس الطيبين أرض الخيرات والرافدين...

وسمعنا كثيراً عن بغداد في القصص والحكايات... مدينة الخير والرخاء.. إلا أنها تعيش دوماً دوامة العطش ويحيط بها نهران، ويحكون عن بغداد أجمل الحكايات وتعيش اليوم في ثياب الفقر والعوز والجوع والآهات.. في قصورك يا بغداد يعيش الحكام والسلاطين وأولادك يفترشون العراء.. هكذا أنت وستبقين أبد الدهر تعطين بلا ثمن ويقبض الثمن اللصوص والمحتالين وأبناء البغاء. الناس يائسون تعبون ينتظرون معجزة

السماء لتتوقف هذه الحرب.. إلا أنها معجزة لا يمكن تحقيقها في بلد أشقاه البؤس والعناء منذ زمن طويل فالأمنيات الحلوة لا تتحقق في بلد ملأه النحس ونحيب العجائز والأرامل وأجساد القتلى...

لن تتحقق أمنيات السلام.. فالأرض مليئة بالضباع التي تبحث عن فرائس قطّعتها وحشية السباع في عالم يدعو إلى السلام كذباً ليقتل الأبرياء ويسرق قوت الفقراء.

كيف لنا أن نرسم لوحاتنا الجميلة بدماء المساكين الذين يسقطون ضحايا الحروب المدمرة.

كل شيء أصبح مثقلاً بالملل والمرارة.. لا شيء له طعم، الكل يعيش لحظات الخوف والترقب من المجهول القادم.. لقد مللنا الخوف إلى درجة فقدنا من خلالها الإحساس بالأشياء التي تحيط بنا وأملنا الوحيد أن ننجو جميعاً من هذه المحنة القاسية، لم نكن نتوقع حجم تلك الصدمة المروعة التي أبهتتنا وجعلتنا متسمرين في أماكننا، فأصوات الصواريخ والقنابل أخذت تغزو مساحات شاسعة من بلادنا وأصبحنا في غمرة الاحتضار لا نميز إن كنا نعيش لحظاتنا الأخيرة أم لا زال في العمر بقية.. ورغم كل هذه المعاناة وحجم الدمار المادي والنفسي الذي أحاط بنا إلا أن عزائنا كنا نستمده من إيماننا بالله، فالعالم يعرف جيداً أننا شعب من الصعب أن يسقط على الأرض لأننا مثل نخيلنا الشامخ نأبى أن نموت إلا ونحن واقفون، قد نميل قليلاً إلا أننا لا ننحني أبداً.

فموتنا كرامة وحياتنا عشق للحياة للجنة للسلام للوطن.. اللحظات الصعبة تجمعنا والأنين الذي يخرج من صدورنا مناجاة لسلامة الأهل والأحباب والأصدقاء... ورغم عمق الجراحات والنزف الكل يفكر بمعارفه لبشارة الخير في البقاء على قيد الحياة.. حتى أجهزة الهاتف صارت تبكي وتنتحب لبكاء الناس.

الكل يصرخ وينادي.. هل أنتم بخير يا أحباءنا؟ نعم.. ولكن رحل بيت فلان وفلان وقتل هنا فلان وفلان إلا أننا صامدون... هكذا هي الحياة باقون وراحلون..

بغداد... يا مدينة الحب والسلام لا نجد فيكِ اليوم عزاءاً إلا أن ينهض المتنبي وينشد فيك قصيدة العز والكبرياء.. هكذا عشت وستبقين عزيزة بأهلك الطيبين.. ستبقين

شامخة وإن رحل عنك الأحباب مرغمين.. وإن قطعوا أوصال الأبرياء بالصواريخ أو قصف الطائرات فالأمل كبير أن تحيي مجدك من جديد.. فلم يسقط لواء الشرفاء، فما زالت قلوب الناس تنبض بالحياة، رغم أنهم محاصرون.. مهددون بالموت والجوع.. الجميع في بغداد مستنفرون.. هكذا أصبح حال العراقيين... القصف مستمر... ومضى على ذلك الجحيم أربعة أيام وأهل بغداد ما زالوا محاصرين يطلبون النجدة من العالم يناشدون الشعوب والأمم ولكنهم لا يستجيبون خوفاً من إمبراطورية الشر التي لا تقهر.. وازدادت مأساة العراقيين...

فالعالم يتفرج صامتاً، يشاهدون من على شاشات التلفزة الآلاف يقتلون بلا ذنب بأيدي الذين يدَّعون بأنهم حماة الحرية.. لا أحد يحرِّك ساكناً.. صامتون بلا حياء يتفرجون على مدينة السلام وهي تحترق بنيران الغزاة.

مضت الأيام... بلياليها الهوجاء في صخب وفوضى في الطرقات ولا زالت الطائرات تجول في سماء بغداد..

◆ **وفي اليوم الخامس: الأحد، 2003/3/23م**

انتشرت الأحاديث التي تدعو إلى الصمود والمقاومة والتحدي.. وأخذت كلمات الحماس تطرق أسماع الناس... الكل يتكلم بلا عناء.. حتى الرئيس «صدام حسين» أخذ يدعو الجماهير ويحفزهم على الصمود للدفاع عن بغداد، ويبدو أن صدام قد أوقع الرعب في قلوب قوات التحالف حتى أخذوا يهددون ويصرخون بضرب بغداد بما يملكون من إمكانيات حربية، وأخذت طائراتهم تقصف بوحشية، ولم تسلم من صواريخهم حتى دور العبادة والمدارس.

وظهر في هذا اليوم الرئيس الأمريكي «جورج بوش» من على شاشة التلفزيون ليقول بأن الحملة العسكرية ستكون أصعب مما تصورته القيادة الأمريكية وأنها ستطول وسيرسل لدعم قواتهم المزيد من القوات العسكرية، وفي المقابل صرح الناطق العسكري العراقي بأن القوات العراقية تقاتل بضراوة وقد تمكنت من إسقاط خمسة طائرات مقاتلة

من نوع F16 واثنين من نوع أباتشي، إضافة إلى تدمير واحد وعشرين صاروخاً من نوع كروز، وأخذ هذا الناطق العسكري باسم القيادة العراقية يصرخ بحماس. لقد أسقطنا هذه الطائرات المعادية في الشعلة والرضوانية وعكركوف..

وأضاف قائلاً: أيها الأخوة إن بغداد بسلام.. ثم تبعه بيان تم فيه الإعلان عن إسقاط طائرة أخرى من نوع أباتشي في نينوى وأخرى في السماوة وكربلاء، ثم يشير البيان إلى معركة «أم قصر» التي تحولت نتيجة بسالة المقاتلين العراقيين إلى ملحمة حقيقية..

وإن ما ادعته القيادة العسكرية الأمريكية حول سقوط مدينة «أم قصر» مجرد هراء، فالقوات العراقية لا زالت في مواقعها المحصنة تقاوم ببسالة لا نظير لها أبداً. تكبد محاولات القوات الأمريكية والبريطانية لاحتلال المدينة خسائر فادحة بالأرواح والمعدات..

وفي خضم ما أعلنه الناطق العسكري العراقي لهذه الأنباء.. قائلاً: إن هذا العدوان غير شرعي وخارج عن ميثاق الأمم المتحدة، ودعا شعوب العالم أن تلتزم بتعهداتها باستنكار العدوان ورفضه واتخاذ مواقف شجاعة ضده.. ويكمل....

لقد قام أحد الجنود من قوات المارينز الأمريكية بالهجوم على أفراد وحدته بالقنابل اليدوية وقد أسفر هذا الهجوم عن مقتل جندي وجرح أربعة عشر آخرين.

لقد كانت هذه البيانات العسكرية المتلاحقة تتضمن أخباراً ترفع من معنويات الشارع العراقي الصامد أمام قصف الطائرات المعادية على مدار الساعة.

فالشعب العراقي في صموده هذا قد أذهل قوات التحالف التي استنفرت كل إمكانياتها ضد شعب العراق ليسجل هذا الشعب الجبار للتاريخ الإنساني صموداً أسطورياً فريداً لا مثيل له عبّر من خلاله عن شجاعته وصبره وإيمانه بالله....

لا زالت سحب الدخان السوداء تغطي سماء بغداد.. وقد حجبت الشمس حتى أصبح النهار وكأنه ليل دامس تقطعه غيوم السحب في ليالي الشتاء الممطرة وشهدت معظم ساعات النهار قصفاً جوياً مستمراً، ولكنه هدأ مع ساعات المساء الأولى ثم حلّ الليل على بغداد ليشهد من جديد حمم النار الملتهبة، وأخذت صواريخ توماهوك تهز انفجاراتها

أحياء بغداد الجميلة لتشهد مرة أخرى ليال الموت والخراب... صواريخ وقنابل تسقط في كل مكان حتى شعر الناس أن لا وجود لمأمن من هذا القصف العنيف.. وفي هذه الساعات الصعبة التي تمر دقائقها بثقل كبير صدر بيان جديد عن القيادة العسكرية العراقية تعلن فيه بأن القوة الصاروخية العراقية قد تمكنت من إطلاق ستة وثلاثون صاروخاً (أرض أرض من نوع أبابيل) و(الفتح) تجاه قوات التحالف.. وفي الحقيقة لقد أعطى هذا التصريح العسكري فرحة كبيرة للناس رغم القلق من الرد الأمريكي لما ستشهده بغداد في الساعات المقبلة من قصف صاروخي.

◆ اليوم الرابع: الاثنين 2003/3/24م

ازدادت وتيرة الأحداث الحربية عنفاً وشراسة، وأخذ القصف الصاروخي للتحالف تتصاعد حدته بلا توقف، والغارات الجوية مستمرة على مدار ساعات النهار، بحيث أن صفارات الإنذار باتت تُطلق لمرة واحدة فقط في الصباح الباكر ومرة أخرى في المساء ليس لتحديد انتهاء الغارات بل لإنذار الناس باستمرارها، لتشهد سماء بغداد عناقاً غريباً ما بين سحب نيران الانفجارات المتلاحقة مع سُحب الدخان المنبعثة من خنادق النفط الأسود المحترقة.

وأمام تلك المحنة العصيبة وهول الصدمة المروعة مما تلحقه تلك الانفجارات المتلاحقة من خسائر، فضلاً عن ازدياد القلق من ما سيلحقه احتراق النفط الأسود من تلوث كبير للجو، مما سيسبب ضرراً بالأطفال، لا سيما اختلاط المواد السامة التي لوثت سماء وطبيعة بغداد جراء ما تلحقه أطنان القنابل والصواريخ من مواد مشعة، فضلاً عن انتشار المواد السامة المتطايرة عبر الدخان المتصاعد من خنادق النفط الأسود المشتعلة، وجد العراقيون أنفسهم أمام محنة جديدة جعلتهم في حيرة من أمرهم ما بين البقاء في منازلهم والموت جوعاً أو خنقاً جراء استنشاق تلك المواد السامة، أو الخروج إلى العراء تحت حدة القصف الجوي.

والكثيرون فضلوا الخروج إلى العراء بعيداً عن جحيم بغداد، واستمرت الطائرات

تحلق في أجواء المدينة غير آبهة إن كانت صواريخها ستصيب أهدافها المحددة أم ستسقط فوق رؤوس المدنيين.

وفي نفس الوقت فإن العراقيين لا زالوا مستمرين بنظام العمل بالبطاقة التموينية وهم دائبون على استلام حصصهم في خضم أوقات القصف يسارعون الخطى إلى وكلاء المواد الغذائية الذين حددتهم الحكومة ليزودوا المواطنين بحصصهم، علماً أن الأجهزة الرقابية في وزارة التجارة قد وجهت لهم تحذيراً بضرورة حسن التعامل والأمانة مع المواطنين بغية استلامهم لتلك الحصص بشكل طبيعي وإلا سيعرضون أنفسهم لطائلة القانون تحت بند الخيانة في زمن الحرب.

أخذ الناس يتهافتون مسرعين للحصول على ما يمكنهم الحصول عليه من المواد الغذائية الضرورية خوفاً من نفاذها مع ازدياد وتيرة الحرب واحتمال استمرارها لأيام طويلة.

وحينما كنت واقفاً لمشاهدة طابور من الناس واقفين قرب أحد وكلاء المواد الغذائية في انتظار استلام حصصهم، تطلعت إليهم كيف تراقب أعينهم الطائرات وهي تقصف وتارة أخرى تنظر إلى ميزان الوكيل وهو يزن المواد الغذائية خشية أن يسرق منها شيئاً، ورغم أن القصف كان قريباً منهم نظراً لكون بعض الوحدات العسكرية العراقية قريبة من المناطق الآهلة بالسكان إلا أن ذلك لم يؤثر على طول انتظارهم في طابور الانتظار.

وفي الحقيقة لقد تعمدت الحكومة العراقية أن تخفي الأسلحة في المدارس أو أن تضع منصات إطلاق الصواريخ بالقرب من التجمعات السكنية مراهنين على أنه قد تكون للاعتبارات الإنسانية عند قوات التحالف أثراً يمنعهم من قصف مخازن الأسلحة ومنصات الصواريخ المخبأة سواء في المدارس أو بين مساكن المدنيين، وقد نجحت الخطة في بداية الأمر وظلت بمأمن عن قصف الطائرات، وما إن استفل الجيش نشر المزيد من صواريخ «أرض أرض» في الأحياء السكنية حتى أصبحت تلك الأحياء السكنية هدفاً عسكرياً لطائرات التحالف مما دفع الناس إلى الهرب وترك منازلهم بعد أن كشفت قوات التحالف اللعبة بمحاولة القادة العراقيين المجازفة باستغلال حياة المدنيين.

وبالفعل قامت الطائرات بقصف جميع مخابىء الأسلحة ومنصات الصواريخ المخبأة في الأحياء السكنية مما ألحق ذلك دماراً كبيراً بالأبنية العائدة للمواطنين فضلاً عن إزهاق أرواح المئات من المدنيين الأبرياء.

وقد شاهدت بنفسي كيف قام أحد ضباط الجيش العراقي بإطلاق صاروخ «أرض أرض» من منصة كانت مخبأة بين الدور السكنية الخالية في أحد أزقة مدينة البلديات، وسرعان ما تمكنت إحدى الطائرات من رصد مكان إطلاق الصاروخ فقامت بقصف ذلك الموقع مما أدى إلى تدميره تدميراً كاملاً ملحقاً أضراراً بالغة بالمباني السكنية المجاورة والقريبة من ذلك الموقع.

وقد كنت على بعد شارعين فقط من ذلك الحدث المروع، ورأيت طفلاً صغيراً قد تطايرت بعض الشظايا من انفجار الموقع الذي استهدفته الطائرة لتمزق أحشاءه ورأيت وقد حملته أمه المسكينة وهي تبكي وتلطم وجهها وتمزق ثيابها، والطفل ينزف وينزف بلا حراك إنه أمر يبعث على الحزن والمرارة. ماذا يمكن أن تفعله حيال هذا الأمر؟! لا شيء سوى الصبر والصمت.. ثم الصمت..

لقد أصبح الحي الذي أسكنه أشبه بالثكنة العسكرية لما شهده من تعزيزات عسكرية، ورغم الخوف من هذه الحشود بالقرب من الأحياء السكنية، إلا أن الناس كانوا فرحين جداً لما تحققه الصواريخ العراقية من ضربات موجعة كاسحة لقوات التحالف فضلاً عن ما يعبّرون عنه من سعادة غامرة عندما يسمعون الأنباء عن صمود أبنائهم النشامى في خنادق المقاومة في مدينة «الفاو» و«أم قصر» وكثيراً ما كنت أسمع الهلاهل العراقية المؤازرة للصامدين في جبهات القتال.

وفي كل مرة عندما يصرح الناطق العسكري العراقي عن قتل أو جرح أو أسر العديد من قوات التحالف تزداد فرحة الناس رغم أنها فرحة ممزوجة بالخوف والقلق على أبنائهم.

لقد تمكن العراقيون من مواجهة أعتى الجيوش الأوروبية المتحالفة بإمكانيات متواضعة فلم يكن الجيش العراقي يملك غطاءً جوياً في المعركة إلا أنه استطاع أن يوقف

تقدم الوحدات العسكرية لقوات التحالف في أغلب المعارك البرية وهذه حالة نادرة لم تشهدها المعارك الحربية السابقة التي مرّ بها العالم.

فضلاً عن أن العراقيين قد تمكنوا من إفشال الكثير من محاولات الإنزال الجوية لوحدات التحالف أرادوا من خلالها اختراق المدن العراقية حتى لا يقدموا على مواجهة مباشرة مع القطعات العسكرية، وكان يوم أمس وصباح اليوم شؤماً على قوات التحالف لما تكبدوه من خسائر فادحة أدهشت القيادة المركزية الأمريكية خصوصاً الخبر الذي أعلن في تمام الساعة الواحدة ظهر هذا اليوم بقيام أحد الفلاحين العراقيين ويدعى (علي لفته) في محافظة كربلاء من إسقاط طائرة من نوع أباتشي، تلك الطائرة العنيدة التي يتفاخر الجيش الأمريكي بإمكانياتها القتالية، قد تمكن فلاح قروي بسيط من إسقاطها بواسطة بندقية من نوع (برنو) قديمة الصنع، لقد شكل هذا الخبر عصفاً مدوياً لأسماع التحالف الدولي بل وللعالم أجمع.

وتناقلت الفضائيات العالمية هذا الخبر، وهذا الفلاح بملابسه العربية البسيطة يقف على أحد أجنحة الطائرة الجاثمة على الأرض.

وفي الحقيقة نحن لا ننكر مقدار القوة الجوية الهائلة للقوات الأمريكية المعروف عنها بأنها أقوى وأكبر أسطول جوي في العالم، أو نحاول أن نقلل من شأن تلك الطائرة الحربية المقاتلة المعروف عنها بتقنيتها العالية، ولكننا أردنا أن ننقل أولاً ما حصل على أرض الواقع، فليس هناك مستحيل أمام الإرادة الوطنية والإيمانية للإنسان خصوصاً إذا كان مظلوماً ويدافع عن أرضه مهما كانت الأسباب والسبل، والشيء الآخر هو أن إرادة الله أقوى من كل أسلحة الدمار مهما كانت قوتها وتأثيرها.

وأنا ككاتب قد أُكذبُ ذلك الحدث لو أنها كانت بالفعل فبركة من فبركات المؤسسات الإعلامية والسياسية العراقية، رغم أن هذه المؤسسات كانت تملك في حينها إمكانيات كبيرة في مختلف الجوانب المادية والبشرية، ورغم أن الإعلام الأمريكي حاول أن يقلل من أهمية هذا الحدث بل وإظهارها كأحد أكاذيب السلطة في العراق إلى جانب تضليل الإعلام الغربي على استحالة الأمر، إلا أني شاهدتُ تلك الطائرة وهي جاثمة على الأرض

وذلك الفلاح واقف بشموخ فوق أحد أجنحتها وبيده السلاح الذي أسقط بها هذه الطائرة.. ففي محن الحروب والكوارث كل شيء ممكن.. لا مستحيل أمام القدرات الإنسانية. مواقف شتى أظهرتها قوانين اللعبة العسكرية ما بين واشنطن وبغداد فالعراقيون أظهروا إيماناً كبيراً بالله ورغبة جامحة للحياة وأثبتوا عبر صمودهم ومقاومتهم أنهم من الممكن أن يكسبوا الرهان رغم حجم الهجمة العالمية عليهم فقد استطاع شعب العراق أن ينقل للعالم أنه من الصعب أن يسقط أرضاً رغم نزف جراحاته العميقة.. فقد أصبح عنوان هذا الشعب كباراً وصغاراً.. نساءً وشيوخاً... الجميع بلا استثناء: «معاً في خندق المقاومة».

أعلنوا في سابقة لم يشهدها أي شعب من شعوب العالم كله ولائهم المطلق للوطن.. للعراق.

لقد اختبرت هذه المحنة الكبيرة تماسك العراقيين وحبهم للحرية والكرامة رغم أنهم قدموا في سبيلها ثمناً غالياً من دماء أبنائهم.

ولقد حصل الشعب الأمريكي على نفس الفرصة بالتعبير عن حبه لبلاده وأبدى تماسكاً وصموداً وشجاعة طوال سنين الكفاح المريرة ضد الإنكليز أيام حرب الاستقلال، حتى تمكنوا من أن يذوقوا طعم الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية، وبالفعل حصل الشعب الأمريكي على هذه النعمة بعد أن قدَّم هو الآخر ثمناً غالياً من دماء أبنائه لينال الأمريكيون احترام الكثيرين من شعوب العالم كونهم حققوا تاريخاً مجيداً ليس للشعب الأمريكي فحسب وإنما للإنسانية قاطبة لأننا جميعاً نشترك في صفة الاعتزاز بالكرامة ونتوق إلى رحبة الحرية والديمقراطية كما نؤمن بالسلام ومحبة الأمن والاستقرار.

إلا أن ما يميز العراقيون ـ فيما اختبرتهم ـ المحنة التي جعلتهم صامدون أمام أقوى جيوش العالم دون أن يمد لهم أحداً يد المساعدة بل وقد أحاطت بهم البلايا من جميع الجهات.. فشعب العراق ـ كما كان أيام البابليين والآشوريين ـ صامد أمام قوى الظلم والطغيان، بينما الشعب الأمريكي رغم احترامنا لما قدمه من تضحيات لم يكن لوحده في

مواجهة الاحتلال الإنكليزي إنما حصلوا على مساعدة الفرنسيين وبعض الدول الصديقة..

وكانت تحارب جيشاً واحداً بينما الشعب العراقي صمد في خندق المواجهة ضد جيوش العالم المتحالفة، وهذا ما سيسجله التاريخ لشعب العراق كالأساطير الخالدة، أما الميزة الأخرى التي تمتع بها الشعب الأمريكي أيام حرب الاستقلال ضد الإنكليز، فمن نعم الله على أمريكا إحاطتها بالبحار ليصبح سوراً يحميها من الأعداء، بينما العراق في أيام المواجهة مع جيوش التحالف لم يكن يملك سوراً يحميه من دول الجوار التي أحاطت به من كل الجهات مستغلة محنتهِ أبشع استغلال!!.

ومثلما كان الشعب الأمريكي مقسماً في حبه وولائه لقائد القوات الأمريكية «جورج واشنطن» ضد الجيش الإنكليزي ما بين الشمال والجنوب، إلا أن واشنطن كان يمثل رمز القيادة العسكرية الأمريكية، كان الرئيس «صدام حسين» يمثل رمز القيادة العسكرية العراقية ضد جيوش التحالف..

فمثلما ننظر باعتزاز واحترام لشعب الولايات المتحدة الأمريكية لنضاله وسعيه لحمل شعلة الحرية في الأرض، نقف مع كل شعوب العالم عن شجاعتها لنيل حريتها بالتخلص من العبودية والاستقلال سواء من المستعمرين أو الخلاص من حكامهم الديكتاتوريين. وأمام تلك الصورة الإنسانية الرائعة وقف الشعب العراقي ليعبر عن إيمانه بالحياة المسالمة ليثبت للعالم بأنه شعب الحضارات العظيمة، يحترم الإنسان ويقدس الحرية ويؤمن بأن الديمقراطية أساساً لدستور البلاد وأنه شعب قادر على النهوض من تحت ركام الدمار والخراب ليعلن بقوة عن وطنيته وإيمانه بالله وبقدرته على البناء رغم جل المعاناة والمحنة التي يمر بها.

وتوالت الأخبار المفرحة عن صمود المقاتلين واستبسالهم في إيقاف تقدم الوحدات العسكرية لقوات التحالف مما دفعهم ذلك إلى تشديد القصف على خطوط المواجهة الأمامية للجيش العراقي من خلال زيادة الطلعات الجوية للطائرات المقاتلة بأنواعها المختلفة.

فضلاً عن زيادة قصف المدن العراقية للتأثير على معنويات المقاتلين العراقيين مما ألحق خسائر كبيرة بصفوف المدنيين حيث تم الإعلان عن سقوط: 194 جريحاً في بغداد، و8 في نينوى، و32 جريحاً في كربلاء، و10 قتلى، وفي صلاح الدين، 22 جريحاً و2 قتلى، وفي النجف 32 جريحاً و2 قتلى، والقادسية 13 جريحاً و4 قتلى، وفي البصرة 122 جريحاً و14 قتيلاً، وفي بابل 63 جريحاً و30 قتيلاً، إنه يوم صعب مر على العراقيين فتار الحرب يزداد سعيرها بلا توقف.

وشهد هذا اليوم المسير خطاباً للرئيس العراقي «صدام حسين» وهو يحث الشعب على الصمود والمقاومة ويثني على بطولة بعض القطعات العسكرية في «الفاو» و«البصرة» و«ذي قار».. ومع كل هذه المواقف الصعبة التي تمر بها البلاد.. بقت مدينة «أم قصر» صامدة خلافاً لكل الخطط والتوقعات العسكرية لقوات التحالف، وقد أفشلت المقاومة الأسطورية للقوات العراقية المتخندقة في هذه المدينة كل التكهنات والاستراتيجيات القتالية التي راهنت على سقوطها وأثبتت هذه القوات خلاف ما فكر به قادة التحالف على أنه بمجرد تحرك بعض الآليات العسكرية نحوها سرعان ما ستنهار مستسلمة بسهولة، لكن المتجحفلين في خنادق المدينة أثبتوا خطأ ما فكر به هؤلاء القادة وسطروا للتاريخ أروع ملاحم البطولة والفداء، وأعطت تلك الملحمة البطولية درساً لقوات التحالف على أن المعركة صوب بغداد ستكون جحيماً بالنسبة لهم وأنهم أخطأوا في حساباتهم عندما ظنوا أن المعارك القادمة لن تكون مجرد نزهة كما قالوا عنها، بل سيشهدون معارك ضارية وسيتكبدون خسائر فادحة مثلما تكبدوها في «البصرة» و«أم قصر» و«الفاو».

وقد أشار وزير الدفاع الأمريكي بكل صراحة ووضوح، مثلما اعترفت القيادة البريطانية بأن تلك الملحمة البطولية التي أبداها العراقيون المتخندقون في «أم قصر» و«الفاو» قد أعطت قوة معنوية كبيرة لباقي وحدات الجيش العراقي المتجحفلة في خنادق المواجهة المرتقبة مع قوات التحالف، كما شجعت رجال القوة الصاروخية العراقية الذين أمطروا في ذلك اليوم وحدات التحالف بـ(32) صاروخ «أرض أرض» من نوع «الطارق» أربكت جيوش التحالف وحيّرت قادتهم على نحوٍ مذهل.

بدأ الليل يخيم بظلامه الدامس ليبدأ معه القصف الصاروخي وهجمات الطائرات الأمريكية التي ما انفكت عن رمي مئات الأطنان من قنابلها على بغداد وضواحيها بلا توقف إلى أن هدأت نسبياً في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، والناس في ترقب عما سيحصل وما سيجد بعد هذا الهدوء المفاجيء لأن طائرات التحالف كانت في الأيام الماضية مستمرة في قصفها على مدار الساعة فما السبب في هذا التوقف المفاجئ.

إلا أن الجميع كانوا متيقنين بأن الساعات القادمة ستكون صعبة ومروعة...

وبالفعل وبعد ساعة كاملة من هذا الهدوء بث التلفزيون العراقي صوراً لطيارين أمريكيين قد أسقطت المقاومات الأرضية العراقية طائرتهما صباح هذا اليوم، بالتأكيد إن وقع هذا الأمر على الإدارة الامريكية كان مريراً وغير متوقع، لأنها كانت تصرح دوماً بأن لا وجود للأسرى لدى القوات العراقية، كما كان تُكذب البيانات العسكرية العراقية بعدم سقوط أية طائرة حربية للتحالف.

وما هي إلا نصف ساعة فقط حتى بثت الفضائيات العالمية نص بيان عسكري عن القيادة المركزية لقوات التحالف تعلن فيها بأنها سوف تصعد من عملياتها العسكرية خصوصاً بقصف مدينة بغداد وهددت بأنها ستحرق أرض بغداد بقنابل طائرات 25 القاصفة والتي غادرت للتو من القاعدة الأمريكية في إسبانيا.

إن هذا التهديد الأمريكي قد أوضح بما لا يقبل الشك بأن المعركة سوف تشهد أحداثاً وتطورات ومفاجآت جديدة قد لا تكون في الحسبان، ومع أني كنت متأكداً بأن الأمر سيصل إلى أعلى درجات القوة في استعراض العضلات الأمريكية وأن الحديث عن وصول هذه القاصفات الملعونة قد أثار حفيظة الناس وزاد من قلقهم وتوترهم عما يمكن أن تصل به الأمور...

ومع أننا لا زلنا نتمتع بلحظات الهدوء في خضم التراشقات الإعلامية، إلا أن سرعان ما شعرتُ بصوت انفجار كبير هز داري اعتقدت أن سقف الدار قد هوى على رؤوسنا نظراً لشدة عصف الانفجار الذي أثار صوتاً مدوياً قد يكون الأعنف منذ بداية المعركة.. عجباً حتى نشرة الأخبار الجوية في التلفزيون العراقي قد نوّهت إلى حصول عاصفة

ترابية ستحيط بالعاصمة بغداد.. ويبدو أنها قد تزامنت مع بدء القصف من جديد لتعلن عن انتهاء مهلة الصمت والسكون، وسمعنا أزيز الطائرات، ولكن كانت أصواتها هذه المرة عالية يختلف عن أصوات الطائرات التي كانت تغير علينا في الأيام الماضية، يا ترى هل سنرى الصباح لو استسلمنا للنوم.. ومَنْ يستطيع النوم في تلك اللحظات المرعبة؟!!.

◆ وفي صباح اليوم الخامس: الثلاثاء 2003/3/25م

لا زالت مدينتا «أم قصر» و«الفاو» صامدتين بوجه القوات العسكرية للتحالف، وهي لا زالت عصية عليهم إلى الدرجة التي أصيبوا من خلالها بالدهشة والحيرة من أمرهم.

وفي بيان للقيادة العسكرية العراقية.. أعلنت فيها عن قيام القوة الصاروخية للجيش العراقي بإطلاق (44) صاروخاً من نوع «طارق» تجاه قطعات القوات الأمريكية والبريطانية في البصرة.

فضلاً عن قيام الدفاعات الجوية العراقية بإسقاط طائرة مسيرة بدون طيار في نفس القاطع، ومع ذلك استمر القصف المعادي طيلة الليلة الماضية حتى الساعة (11) صباحاً من هذا اليوم، تبعه هدوء غير متوقع لمدة خمس ساعات تخللها سقوط بعض صواريخ كروز في أوقات متباعدة، ثم عادت الطائرات لتقوم بالقصف مجدداً في تمام الساعة الرابعة عصراً وسمعنا أصوات الانفجارات البعيدة في أنحاء متفرقة من أحياء العاصمة بغداد إلا أن أشدها كان حول بوابة بغداد عند منطقة «التاجي» حيث تتواجد هناك قطعات الحرس الجمهوري المساند للجيش النظامي العراقي، في محاولة لتكبيد القوات العراقية خسائر بشرية كبيرة، واستمرت عمليات القصف إلى أن شهدنا في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً زيادة في أعداد الطائرات المهاجمة، ليعود القصف الجوي شديداً مثلما بدأ في ساعات الصباح الأولى وتوالت أصوات الانفجارات المدوية خصوصاً عندما قامت الطائرات الأمريكية بقصف مديرية الأمن العامة ومقر قيادة الحدود في حي

البلديات ومقر قيادة الفدائيين في «زيونة» حتى كنا نشعر باهتزاز سقف منازلنا من شدة القصف. وأدركنا بالفعل أن ذلك القصف القوي لا يمكن أن تخلفه الطائرات الحربية المعروفة إنما هي من جراء قيام قاصفات 25 بضرب هذه المواقع المنتخبة، ونتيجة لهذا القصف العنيف أصيب الناس بالهلع، ليعيش أهل بغداد ليلة عصيبة أخرى من ليالي معركة الحواسم، فقد عزمت قوات التحالف على استخدام استراتيجية جديدة في المعركة.

♦ أما اليوم السادس: الأربعاء 2003/3/26م

فقد شهد هو الآخر كثافة غير مسبوقة بعدد الطلعات الجوية، حيث قامت الطائرات الأمريكية برمي قنابل من زنة طنين وأكثر على بغداد، وهذه القنابل تستخدم لأول مرة، فقد أعدت لتسبب دماراً واسعاً ولتترك مساحات واسعة من الخراب والحرائق.

إنها بالفعل حرب قذرة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، حرب تسقط فيها كل الموازين الإنسانية، فرغم الإعلان الأمريكي الذي كان يروج له على مدار المعركة على أن الحرب ستكون نظيفة ولا ندري أي معنى يقصدون بهذه الحرب النظيفة عندهم... وعشرات الأطفال يُقتلون وآلاف العوائل تشرد في العراء، المدارس والمؤسسات والجوامع والكنائس تضرب بالقنابل، والمساكن التي كانت تعج بالناس الآمنين أصبحت إما خالية أو مدمرة أو فيها عزاء، وأصبحت مدن بأكملها مليئة بالفوضى والخراب..

فهل هناك بالفعل حرب يمكن أن توصف بالنظافة؟!! وهي تخلف كل هذه الأعداد المخيفة من القتلى والجرحى والمشردين فضلاً عن آلاف المساكن المدمرة.....

مئات الجرحى والقتلى من النساء والأطفال والشيوخ والشباب على مدار الساعة وقادة الحرب يعلنون بلا خجل أنها ستكون حرباً نظيفة، ونسوا بأنها أقذر حرب عرفها التاريخ على مر الزمن، وأن الشعارات المزيفة لا يمكن لها أن تخدع الشعوب لتبعدها عن كشف الحقيقة.

ومع ما شهدته هذه الحرب من قذارة فقد سقط في هذا اليوم صاروخ كروز على

الباحة الخلفية للجامعة المستنصرية ليقتل طفلة بريئة وعدداً من الشبان، ويحرق العديد من السيارات المدنية، ويدمر عدداً آخر من المنازل.

كما سقط صاروخ آخر على حي سكني في منطقة «راغبة خاتون» ليقتل عوائل بأكملها وهم نيام وصاروخ آخر أخطأ هدفه ليسقط على أحد الأحياء السكنية في مدينة «الضباط» ويقتل أعداداً أخرى من الأبرياء.

وصاروخ آخر سقط في حي «العدل» وآخر في مدينة «اليرموك» وآخر... وآخر والمزيد من الضحايا الأبرياء يسقطون صرعى في كل مكان، لا ذنب لهم سوى أنه قد تم إقحامهم في هذه الحرب لحسابات ومصالح عالمية لا زلنا نجهل استراتيجيتها، فهل يا ترى هي حرب من الطراز النظيف مثلما عبروا عنها في وسائل إعلامهم.

ورغم هذا العنف العشوائي الذي تبديه قوات التحالف في هجماتها المستمرة على البلاد إلا أن الجنود العراقيين المتخندقين في «الفاو» وفي «البصرة» و«ذي قار» و«النجف» و«كربلاء».. لا زالوا يقاومون بشجاعة.. إنهم يسطّرون ملحمة قتالية كبرى في أصعب مرحلة تاريخية يعيشها شعب العراق في ظل تكالب القوى الظالمة عليه.

إنه شعب من طراز خاص بعروبته ووطنيته، إنه شعب فطن شجاع، ليس شعباً جباناً، والله لو كان هناك أي شعب في العالم مهما كانت إمكانياته وقدراته العسكرية والمادية والبشرية لسقط وانهار تحت وطأة جزء بسيط مما شهده العراقيون من جحيم حمم النيران الملتهبة التي صبت عليه في تلك الحرب القذرة.

إن العراقيين معروف عنهم عبر التاريخ أنهم شعب يتجدد وينهض من تحت الركام كطائر العنقاء....

شعب عظيم لم يخلق الله بمثل صفاته، ولم يعط أحداً ما أعطاه من إيمان وصبر وتضحية وإيثار وشجاعة وكرم وثبات فقد علّموا الأمم والشعوب معنى الصمود والبسالة مثلما علموهم من قبل الحضارة والمدنية وكل أصول المعرفة، فهل هناك نظير يمكن أن يقارن به من الشعوب؟!.

شعب العراق العظيم لا يمكن له أن يموت أبداً إنه شعب عمره أكثر من ستة آلاف سنة لم تستطع كل الحروب والأزمات والكوارث والمحن الجسام التي عصفت به عبر العصور أن تنهكه وتتعبه وتغلبه وتنال من عزمه وحبه للحياة.

فلا عجب ولا اندهاش من صموده، والتاريخ منذ الأزل شاهد حي على بسالته ضد الغزاة.

ولا نستغرب مثلما استغربت وانذهلت القنوات الفضائية وهي تبث للعالم مشاهد لأطفال عراقيين وهم يلعبون الكرة في الشوارع بلا خوف وفزع من طائرات التحالف وهي تحلق فوق رؤوسهم وترمي بحمم النيران بأطنان من القنابل الحارقة، كما نسي هؤلاء الأطفال البكاء رغم أنهم يعيشون في ظل ظروف صعبة للغاية.

ورأيت مواقف أخرى كانت تهزني من الأعماق فقد شاهدت رجالاً يبكون على هذا الوطن خوفاً من ضياعه وخشية أن تطأ ترابه أحذية الغرباء والخونة.

فليس هناك ما هو أغلى من أن نبكي عليه سوى الوطن.

فالإنسان بلا وطن.. إنسان بلا كرامة، بلا وجود حقيقي لإنسانيته.

كثيرة هي المواقف المؤلمة التي تدمي القلوب كنت ألتمس فيها شعوراً بالخوف من أن تسقط السماء حزناً...

ففي أحد الأزقة في الحي الذي أسكنه شاهدت طفلة صغيرة لم تتجاوز الثلاث سنوات من عمرها وقد أفزعها صوت انفجار قريب، فصرخت مرعوبة بصوت مشحون بالبكاء وهي تشير بإصبعها الصغير إلى السماء تريد أن تدل أباها إلى مصدر خوفها.. تريد أن تقول له أنها طائرات الأعداء.. تريد أن تقول له لماذا يضربوننا بلا حياء؟ لماذا لا يحترمون الأطفال والنساء؟

فيحتضنها الأب المسكين الذي لا يملك سوى الرجاء والدعاء ويجهش بالبكاء..

يقول لها.. ابنتي.. صغيرتي نحن نعيش اليوم زمن عاشوراء.. فبالأمس قتل الحسين حفيد الأنبياء في مدينة كربلاء قتله طغاة الأمس الذين روعوا الأطفال والنساء وذبحوا أنصاره من الأبرياء..

واليوم يا صغيرتي نشهد تلك الأيام في عزاء نلبس السواد ونرفع الرايات السوداء... فكل يوم يشهده العراق هو كربلاء...

أجل فهذا الشعب منذ أمد بعيد يتعرض للقتل والمؤامرات، وقد أجهضت الأيام المهلكات أحلامه في العيش مثل بقية شعوب العالم بأمن وسلام.

◆ اليوم السابع: الخميس 2003/3/27 م

لقد عشنا يوماً آخر من أيام الدمار والخراب، والكثير من الصواريخ قد هوت على رؤوس المدنيين...

ففي هذا اليوم سقط أيضاً صاروخ توماهوك على مدينة «المنصور» الواقعة في وسط بغداد وراح ضحيته العشرات.

وفي بيان عاجل للقيادة العسكرية العراقية تؤكد فيه أن المعارك لا زالت مستمرة بضراوة، ووصفتها بأنها الأعنف منذ أن بدأت وخصوصاً على مشارف مدينتي «النجف الأشرف» و«كربلاء المقدسة» وأطراف مدينة «البصرة» و«المثنى» حول مدينة «كركوك» و«الموصل» وأثناء بث هذا البيان.. انقطع الإرسال يبدو أن خللاً قد حدث جراء استمرار القصف العنيف على مبنى الإذاعة والتلفزيون، كما انقطعت الاتصالات الهاتفية في بعض مناطق بغداد حيث قامت الطائرات الأمريكية بقصف البنى التحتية لدفع الأهالي إلى اليأس والاستسلام بعد أن كانت توقعاتهم تؤكد أن «بغداد» لن تصمد أكثر من ساعات، ولا زال قاطع البصرة يشهد قتالاً شرساً في «صفوان» و«أم قصر» و«الفاو».

وفي قاطع الفرات الأوسط حققت قوات التحالف تقدماً، كما يسرت لهم ظروف الصحراء والتكنولوجيا العسكرية الالتفاف حول بعض المدن العراقية في محاولة لتجنب المواجهة المباشرة مع القطعات العسكرية العراقية بعد أن أدركوا خطورة حصول مثل هذه المواجهة لاستيسال العراقيين في الدفاع عن مدنهم.

وجاء بيان صادر عن القيادة العراقية تؤكد فيه ما يبذله المقاتلون العراقيون من

بسالة نادرة في التصدي للقطعات العسكرية للتحالف التي تحاول اختراق المدن العراقية من جهة الصحراء.

فضلاً عن الشجاعة التي تبديها قوى المقاومة الشعبية في مدينة «الناصرية» فلا زال أبناء المدينة يكبدون التحالف خسائر فادحة، فقد تمكنوا من إحراق ستة دبابات إلى جانب تمكن القوة الصاروخية العراقية من إسقاط مائة واثنين وعشرين صاروخاً من نوع كروز، كما وجهت اثنين وثلاثين صاروخاً من نوع «الطارق»، وثلاثة من نوع «أبابيل» على القطعات الخلفية لقوات التحالف ورغم وجود بعض المبالغة في تقديرات القيادة العراقية بإسقاط الصواريخ المعادية إلا أنها بقت مقبولة لدى الناس في غمرة المواجهات الشرسة التي صاحبت المعارك في اليومين الماضيين.

إلى جانب كون غالبية الناس لا يعرفون ما يجري على أرض الواقع لأنهم مشغولون بمصائبهم وما حل بهم من محنة ومصاعب جلية.

وفي تمام الساعة الثامنة والنصف ليلاً أطلقت صافرة الإنذار المتواصلة لتعلن عن انتهاء الغارات الجوية لطائرات التحالف التي شهدتها بغداد منذ الصباح الباكر. ولكن سرعان ما عاودت الصافرة لتعلن عن بدء هجوم جوي جديد صاحبه انطفاء تام في الكهرباء فضلاً عن هبوب عاصفة رملية كثيفة لم تشهدها بغداد من قبل، فباتت السماء محمرَّة تغطيها سحب الدخان الأسود وخفافيش الليل تحوم في أجوائها والصمت قد أصاب الأرجاء كلها وصوت الريح تعصف بالمدينة والخوف منطبق على الأنفاس وسكون يعم بيوتات بغداد.. وهناك نحيب وبكاء.. وفي كل مكان دعاء.. وتمنيات للخلاص من هذا البلاء... فأهالي بغداد أدركوا أن السماء مشفقة على الناس الذين يتساقطون ضحايا لهذه الحرب اللعينة.

وفي هذه الأثناء كنت أراقب ما يحدث خارج الدار.. تارة من الباب الأمامي وتارة أخرى من فوق الجدار، وأسرعتُ بالدخول إلى المنزل بعد أن تصاعدت شدة القصف الجوي والقلق أخذ يشد أنفاسي ففكرتُ الاحتماء في إحدى الغرف الخلفية إلا أنني أدركت أن ما أقوم به أمر لا يجدي نفعاً فليس هناك مكان آمن في كل البلاد يمكن اللجوء إليه.

فالنيران تحيط بنا من كل جانب وبين الحين والآخر كنت أحاول أن أسترق السمع من أحد الشبابيك المطلة على الشارع التي كانت تشغلها الكثير من العربات المدرعة العراقية وآليات أخرى مركونة على جانب الطريق. وعلم الأهالي في ذلك الحيّ الذي أسكنه أن إحدى المنصات الصاروخية للجيش العراقي قد خبأت بالقرب من إحدى الدور السكنية المجاورة، وكانت بالتحديد على بعد شارعين فقط وهذا يعني أن كل المنازل المحيطة بها أو القريبة منها ستكون عرضة لقصف طائرات التحالف، لذا كان الجميع يبتهل إلى الله أن يقوم الضابط المسؤول عن هذه المنصة بنقلها إلى موقع بعيد عن منازل المواطنين قبل أن ينكشف أمرها، وكنت أتساءل في قرارة نفسي في تلك اللحظات الحرجة: هل سننجو من هذا الجحيم المستعر، سؤال من الصعب الإجابة عليه في تلك الظروف القاسية والفوضى العارمة التي تشهدها البلاد.

ولكني كنت على يقين بالنجاة.

رغم أنهم كثيراً ما صرحوا عبر الفضائيات بأنها ستكون حرب أمدها عدة ساعات أو عدة أيام، إلا أنها أخذت في أحداثها تبدو حرب جوع واستنزاف ودمار وإرهاب وجنون بكل المقاييس، إنها حرب القذارة العالمية التي تورط بها الشعب العراقي وسيق لها بغفلة من أمره لتصبح نتائجها شاهداً على هذا العصر الذي لا يرحم الشعوب التي تركن للسلام.

يا ترى هل سيكتب الله لي النجاة لأرى نهاية هذه الحرب، القلم لا زال بين أصابعي والأوراق مبعثرة على الطاولة التي شهدت معي هزات الانفجارات العنيفة، لم يبق من الليل إلا ساعة واحدة ولكني لا زلت صامداً متحدياً كل ما يجري من حولي من جنون هذه الحرب القذرة.

مضت الساعة سريعاً ودخلنا فجر اليوم الثامن: الجمعة ـ 3/28 من أيام هذه المنازلة التي سُقنا إليها ونحن صامتون مغلوبون على أمرنا، وها نحن نحلم مثل بقية البشر في كل أرجاء العالم ونتمنى الخلاص من معاناتنا فقد مللنا تلك الأجواء الصاخبة والهواء الملوث الذي أخذ يخنقنا، كما أن مخزون الغذاء أوشك على النفاذ، أصبحنا محاصرين

وعلينا أن نتخذ قراراً سريعاً إما البقاء أو الهرب بعيداً عن هذا الجحيم مهما كانت نتائج ذلك القرار، فليس من الحكمة الموت عبثاً جراء التسمم من المواد السامة التي انتشرت في كل أرجاء المدينة أو البقاء تحت رحمة القنابل الحارقة التي أخذت تسقط كالحمم البركانية على رؤوس الناس، وفي الحقيقة كان القرار صعباً للغاية.. فالكثيرون اختاروا الهرب من بغداد للخلاص من تلك النيران الملتهبة تاركين ديارهم تعبث بها النيران أو اللصوص وتجول في باحاتها الرياح السوداء ورائحة العفونة والأغبرة وأشباح الأموات.

وقد اختار الناس مدينة «ديالى» القريبة من الحدود الإيرانية لأنها لم تشهد غارات الطائرات أو قصف الصواريخ لدول التحالف مثلما شهدته بقية المدن العراقية الأخرى، كان عليَّ أن أحافظ على رباطة الجأش كي أتمكن من السيطرة على الموقف داخل منزلي بعد أن أخذ شدة عصف الانفجارات القريبة تثير جنون الأطفال وقد كنت أخشى عليهم أن يصابوا بالانهيار النفسي نتيجة الضغط والخوف الذي يدفعهم كثيراً إلى الصراخ والبكاء..

وأخيراً قررت أن أترك المنزل أسوة بباقي الجيران الذين يسكنون بالقرب من منزلي.. كل ما أستطيع أن أتذكره أني كنت مسرعاً في حمل حاجياتنا الضرورية وأهمها زجاجات الماء الصحية وبعض الفرش والبطانيات وتكديسها مبعثرة في عمق سيارتي الصغيرة التي كانت من نوع «فيات 131»، ويبدو أن قرار الهروب من بغداد كان صائباً، فقد رأيت وأنا أهمُّ بالخروج من هذا الجحيم الملتهب عشرات الناقلات العسكرية العراقية وآلاف الجنود المنتشرين بين منازل المواطنين، فضلاً عن انتشار خنادق الفدائيين على طول الشارع الرئيسي المؤدي إلى طريق «ديالى»، إنه حقاً موقف صعب وشاق ومؤلم أن يشاهد المرء كل هذا وهو يسير وسط مدينة تأج بالهرج والمرج وطرقاتها مليئة بالجثث المشوهة والمحروقة المبعثرة وأخرى تأكلها الحيوانات وآثار البيوت التي دمرها قصف الطائرات والصواريخ العشوائية... وكنت أقود سيارتي والدموع تنهمر من عيني... لا أصدق ما أراه... لقد تركت كل شيء خلفي حتى الذكريات المؤلمة للخلاص من هذه المجزرة الرهيبة ومع هذا كان قرار الهروب صائباً.

ورغم أني كنت مسرعاً بقيادة السيارة إلا أن ذلك لم يمنعني أن أرى بوضوح الكثير من الدبابات والعجلات المحترقة بمن فيها.. يتصاعد منها النيران والدخان الأسود ورائحة احتراق أجساد الجنود.. نعم إنها مركونة على جانبي الشارع الرئيسي للحي السكني لمدينة البلديات.

ولاحظت سيارة مدنية قد أصيبت بنيران القصف حيث تفحمت جثث الضحايا بداخلها.. ولا زال ذلك المنظر الرهيب عالقاً في أذهاني إنه بالفعل منظر يبعث على الفزع والخوف والحزن والتساؤل عن ذنب هؤلاء الأبرياء؟!.

كان علينا الإسراع في الهروب من بغداد.. وهذا ما دفعني إلى الضغط على دواسة البنزين إلا أن السيارة كانت قديمة لا يمكنها الانطلاق بسرعة الريح مثلما أتمنى... فقد كانت الجثث المقطعة والمتفحمة على طول الطريق تفزعني حقاً، وكنت أشغل الأطفال عندما كنا نمر بهذه المناظر المؤلمة كي لا يرون تلك المشاهد المرعبة.

الطريق أصبح طويلاً جداً... ونحن نردد: هل سننجو؟!! هل لا زلنا قادرين على الصمود أكثر؟ وفي تلك اللحظات سمعت صوت صافرة الإنذار وهي تعلن عن بدء غارة جوية، بعدها بقليل امتلأت السماء بطائرات التحالف وهي تصول وتجول بلا رادع، ثم أخذت أصوات الانفجارات تعلو رويداً رويداً وأخذت الأرض تزداد اهتزازاً تميل معها السيارة، إلى أن وصلنا بالقرب من مركز الدفاع المدني لمدينة الشعب على الطريق السريع، وما إن استدرت بسيارتي حتى شاهدنا النيران تعلو من سطح البناية حيث قامت إحدى طائرات التحالف بقصفها بصاروخين مما أدى إلى تدميرها وإحراقها بالكامل.

وسرعان ما هرعت سيارات الإسعاف إلى المكان لنقل الجرحى إلى المستشفيات القريبة خشية أن تعاود الطائرات قصفها من جديد.

لقد كانت زوجتي تنظر إليّ مندهشة فيما أنا أقود السيارة مسرعاً لتجاوز تلك المنطقة التي باتت تشكل خطراً على المارين - بعد - بها وأرى في عينيها أسئلة كثيرة كنت أتهرب من الإجابة دون أن تشعر، فالخوف مشروعاً في تلك اللحظات الرهيبة والبكاء مشروعاً في تلك الأيام الحزينة، هل كان اختيارنا لتوقيت الهروب من بغداد صحيحاً؟!

لا أدري... ولكني أدرك تماماً أن البقاء في ظل تصاعد العمليات العسكرية في الحي الذي أسكنه لا يمكن تسميته إلا بالانتحار.

وما دام أمامنا فرصة للنجاة ـ حتى ولو كانت ضئيلة ـ فهي بالتأكيد أفضل بكثير من البقاء وانتظار الموت الذي قد يداهمنا بين لحظة وأخرى.

فقد كان كل جزء من أرض العراق يشهد تساقطاً لحمم القنابل الحارقة الفسفورية والعنقودية، وعلى ذكر الأخيرة.. شاهدت في اللحظات الأولى لهروبنا عبر الشارع المؤدي بالقرب من قناة الجيش سيارة من نوع «تيوتا بيكب دبل قمارة موديل 1975» قد تناثر هيكلها جراء اختراق الشظايا وكان جميع من فيها قتلى، ولكن ما أثار فزعي رؤية السائق ماسكاً بالمقود وهو بلا رأس، كان بحق منظراً رهيباً كاد الخوف والهلع يوقف نبضات قلبي، ولكني تماسكت لثقتي بالله وإيماني بالنجاة مع عائلتي بأن نخرج من هذه النيران المستعرة بسلام.. وكنت ألتفت إلى الأطفال فأراهم نائمين بعد عناء التعب، نظراً لأنهم كانوا يتظين طوال الليل من هول الصدمات المروعة لصوت الانفجارات، أما زوجتي فقد كانت منهمكة بقراءة القرآن الذي لم يفارق يديها أبداً...

◆ وفي اليوم التاسع: السبت 2003/3/29م

كنا قد وصلنا إلى مدينة «مندلي» القريبة من الحدود الإيرانية، واخترنا البقاء عند أقارب لنا في ناحية «قزانية» التي كانت تزهو بأهلها الطيبين الذين فتحوا للبغداديين أبواب منازلهم وشاركوهم في رغيف الخبز، إنهم بالفعل يستحقون الثناء لأنهم أثبتوا وطنيتهم وحبهم لهذه البلاد وأعطوا انطباعاً حقيقياً عن الأصالة العراقية بالكرم وحسن الضيافة.

كنت أدوّنُ في ذلك اليوم أقوال غالبية القادمين أو بالأحرى الهاربين من بغداد، وأسجل ملاحظاتي حول ما يقال من أحاديث في مجالسهم، وسمعتُ من الراديو أن الطائرات الأمريكية قد زادت من قصفها لبغداد وكانت الخسائر تزداد حدتها بين صفوف المدنيين، وهذا ما يؤكد النزوح الكبير للأهالي إلى محافظة «ديالى» هرباً

من الجحيم، وكنت أرى الإصرار لدى الكثير من الرجال والرغبة في العودة إلى منازلهم لحمايتها بعدما أشيع انتشار اللصوص في ضواحي بغداد، ويبدو أن الخوف الذي أفزع الأطفال والنساء هو الذي دفع غالبية العوائل إلى ترك منازلهم والهرب بعيداً بعد تزايد شدة القصف المروعة، لقد كانت فكرة العودة إلى المنازل في بغداد يشغل بال الكثير من الرجال، وما أدهشني أني كنت أشاهد المراهقين وحتى النساء وبعض الذين لم تتجاوز أعمارهم العاشرة يستمعون إلى الراديو لمعرفة آخر مستجدات هذه الحرب اللعينة، وكان الجميع يدرك جيداً أن قوات التحالف قد بالغت كثيراً في استخدام القوة وأفرطت بها إلى درجة الجنون في ضرب المدنيين دون تمييزهم عن القوات العسكرية. إن الصمود الأسطوري لشعب الرافدين رغم أنه لم يكن بالمستوى الذي يمنع واقع الحال الذي فرضته قوات التحالف المدججة بالسلاح والتكنولوجيا المتطورة المصحوبة بالعنف المفرط إلا أنهم كانوا أقرب إلى اليقين من أن الأمل في الحياة أقوى من أي نوع من أنواع الأسلحة الغبية التي كانت لا تميز بين طفل وجندي.

ورغم أن قوات التحالف قد تفوقت عسكرياً إلا أنها تعرضت لخسائر كبيرة جداً وفي نفس الوقت فإن العراقيين قد قدموا خسائر ليست بالقليلة في تلك الملحمة التاريخية الكبرى.

ففي الوقت الذي أشير فيه إلى ما قدمه الشعب العراقي من خسائر بمنتهى الموضوعية ليكون عرضاً صادقاً للتاريخ فمن المؤسف حقاً ونحن نكتب للتاريخ أن نشير إلى مدى العشوائية والسطحية التي كان يعيشها العالم بشتى مذاهبهم وأديانهم وقومياتهم وألوانهم، لأنهم كانوا بعيدين جداً عن دورهم الإنساني وكان الجميع يفضل مصالحه الخاصة على حساب الشعب العراقي فضلاً عن شعوب أخرى قد تملكتها رغبة الانتقام.

كما أسلم البعض مقدماً أن تكون الغلبة لمن يستخدم العنف أكثر ولكن دعونا نقول الحق: فإن الجميع كانوا لا يعرفون إلى أين ستصل هذه الحرب ومن ستحرق معها؟

فالجميع لهم مصالح مع هذا الطرف أو ذاك، إلا مصلحة الشعب العراقي فقد كانت غائبة عن قلوب وضمائر الكثيرين.

إن مثل هذه الحروب الدموية غالباً ما تؤدي إلى كوارث حقيقية لأنها تهدد السلام والاستقرار في كل بقاع الأرض، لأنها حرب تذهب بالحضارة والقيم الإنسانية، حرب لا تميز بين الناس، لذا فهي لم تميز إطلاقاً بين 27 مليون عراقي ضمن دولة مستقلة عضوة في هيئة الأمم المتحدة.

هذا الشعب وللأسف أصبح رهناً بخطورة هذه الحرب، إنها حرب من النوع الذي يثير القلق والرعب، لقد دمرت قوات التحالف في زحفها نحو بغداد كل ما تستطيع فعله، ورغم أن القوات كانت بطيئة في تقدمها إلا أنها كانت قوية في فتكها وتدميرها. وفي الوقت نفسه ورغم تفوقهم العسكري لم تخلو قلوب عساكرهم من الخوف والفزع، وهو أمر قد لا يصدقه البعض خصوصاً بعدما تفاجأوا بما واجهوه من مقاومة لا نظير لها في تاريخ الحروب قاطبة. وقد اعترفت وزارتي الدفاع الأمريكية والبريطانية صراحة بتلك المقاومة الباسلة التي أبداها العراقيون وعلى وجه التحديد في «البصرة» و«أم قصر» و«الفاو» و«الناصرية» و«النجف» و«كربلاء» وأطراف «بغداد» وفي مداخلها ومخارجها وفي «كركوك» و«الموصل».. أجل كنا نعلم أن «بغداد» ستسقط إن لم يكن عاجلاً فآجلاً.. ولكن ما مدى ما سيقدمه المحتلّ من خسائر لتحقيق هذا الهدف أو فلتفل هذا الحلم العسكري الكبير، والعجيب أن وزير الدفاع العراقي «هاشم سلطان» قال في مؤتمر صحفي بكل صراحة أن الجيش الأمريكي سيدخل بغداد بعد سبعة أيام وهذا ما تم فعلاً، فمن أين كان له تلك المعلومات الخطيرة؟ وكيف يصرح بهذا القول والجيش العراقي لا زال يواجه التحالف في معركة لم تثنه رحاها بعد؟

إن الإحصاءات المحلية تؤكد وقوع خسائر كبيرة في صفوف المدنيين جراء تلك العمليات العسكرية الواسعة فضلاً عن خسائر أخرى نجمت عن آثار القهر والبؤس والمرض والجرائم المنظمة، وليس خافياً أن قوات التحالف قد دمرت الكثير من المدن والقرى والأحياء لأنها وقفت سداً أمام تقدمهم نحو بغداد العاصمة.

وفي بيان جديد للقيادة العسكرية العراقية جاء فيه عن تمكن القوات العراقية ضمن القاطع الأوسط من تدمير ست دبابات، وعن قيام تنظيمات الفدائيين بتدمير عجلة ودبابة إلى جانب المشاركة الفاعلة لجيش القدس في ذات القاطع وتمكنه من مشاغلة قوات التحالف بالقاذفات والرشاشات وتدميرها لثلاث دبابات وناقلتين للأشخاص وعجلة قيادة، أما نشاطات القوة البحرية ضمن القاطع الجنوبي فقد تمكن رجالها من شن غارة على تجمع لجيوش التحالف في «السو» ودمرت طائرة وناقلة أشخاص وعجلة قيادة كما تمكن من إسقاط طائرة مسيرة بدون طيار.

أما القوة الصاروخية العراقية فقد نشطت فعالياتها القتالية وقامت بإطلاق اثنين وثلاثين صاروخاً من نوع «طارق» وخمسة صواريخ أخرى من نوع «أبابيل» وعدد آخر من صواريخ «الصمود» لتحرق خطوط التحالف الأمامية وقطعاتها الخلفية، ونجحت تلك الصواريخ بإصابة قاعدة «علي» الجوية التي تتمركز فيها مقر عمليات قوات التحالف.

كما أشار البيان إلى جرح أكثر من مئتي شخص من المدنيين في مدينة «الناصرية»، وحسب شهود عيان فإن بغداد أصبحت مدينة أشباح حيث باتت شوارعها خالية إلا من المقاتلين وبعض المدنيين الذين آثروا البقاء في منازلهم وهم يعيشون لحظات عصيبة جداً، وقوات التحالف ماضية في حربها وتقدمها نحو بغداد.

وجاء في تصريح للقيادة المركزية الأمريكية:

إن قوات التحالف جاؤوا للعراق كمحررين وليسوا قوات احتلال، وهدفهم تخليص العراقيين من ديكتاتورية «صدام حسين» الذي أخذ يشكل تهديداً للسلام العالمي بعد أن كشفت الاستخبارات الأمريكية علاقته بتنظيم القاعدة وامتلاكه لأسلحة الدمار الشامل مما يشكل خطراً على المجتمع الدولي.

وفي الحقيقة أن المعلومات الاستخباراتية التي تكلمت عنها القيادة المركزية الأمريكية غير دقيقة في تأكيدها على تورط الرئيس العراقي بارتباطه بالقاعدة أو امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل.

وقد اعترف الكثير من الساسة الأمريكان خلال تصريحاتهم الصحفية على ضعف هذا الاتهام غير المصحوب بالأدلة القطعية.

وأن تلك المعلومات الاستخباراتية التي بني على أساسها إعلان الحرب على دولة العراق كانت مجرد أوهام ليصبح الشعب العراقي ضحية ذلك الصراع الدموي العنيف وليدفع من أجلها ثمناً باهظاً من دماء أبنائه، وتفيد الأنباء بأن الموقف السياسي أخذ يزداد حدةً وتوتراً لتتسع الهوة بين أطراف النزاع وكثرت التهديدات التي تؤكد بأن قرار الحرب بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية كان أمراً لا بد منه.

وتكهّنت المصادر السياسية العالمية بأن هذا النزاع الجديد الخطير سيكون بعيد الأثر على العلاقات الدولية في مختلف أنحاء العالم، وقد تثير أزمة دبلوماسية من الدرجة الأولى، ولم تخف الدوائر السياسية في العالم قلقها من تلك التطورات الجديدة التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط كما أشارت أن حدة الاشتباكات وكثرة الإصابات بين المدنيين تعد سابقة خطيرة تحتاج إلى مبادرة دولية سريعة لإنهاء الأزمة.

ورغم كثرة التصريحات والبيانات للعديد من الشخصيات العالمية البارزة ومنهم رؤساء وملوك وأمراء بالدعوة إلى إنهاء الحرب واللجوء إلى سبل الحوار الدبلوماسي، كان أبرزها دعوة الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، إلا أنه لم يوفّق في إقناع الأطراف المعنية بالنزاع مثلما لم يوفق الآخرون في مساعيهم للوصول إلى تسوية للنزاع بالطرق السلمية، فقد كان لإصرار الولايات المتحدة الأمريكية على مواصلة الحرب وإعلان رغبتها المجانية لمساعدة العراقيين للتخلص من نظامه السياسي الأساس في تصعيد التوتر الحاصل وجعل جميع مبادرات التوسط لحل الأزمة تسير في طريق مسدود، وبذلك أصبح مفتاح حل الأزمة وإنهاء الحرب رهينة بيد «صدام حسين» الذي يمثل رمز القيادة العراقية و«جورج بوش» الذي يمثل رمز القيادة الأمريكية وقائد التحالف العالمي!

وإذا نظرنا إلى استعراض القوتين من الناحية العسكرية فإننا نجد بأن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها لا يملكون جيشاً بريّاً قوياً من الناحية المعنوية والعددية، إلا

أنهم كانوا يعتاضون عنه بأقوى أسطول بحري في العالم وأعظم أسطول جوي في تاريخ الحروب الحديثة، فضلاً عن امتلاكهم لقوة صناعية وتكنولوجية ومالية كبيرة مع امتلاك القدرة النووية إلى جانب نجاحها في الوسائل السياسية لحشد القوى العالمية الكبرى لتأييدها والوقوف مع تطلعاتهم ومصالحهم وأهدافهم الاستراتيجية.

ومن خلال هذا الاستعراض البسيط للقوة الأمريكية نرى بوضوح تام مدى التفوق الذي يتمتع به الأمريكان، أما الجانب العراقي وفي مواجهة التحدي نجده يمتلك ألوف الأطنان من الأسلحة البايولوجية والكيماوية وأعداداً كبيرة من الصواريخ المتطورة وجيشاً كبيراً يصل تعداده إلى سبعة ملايين مقاتل موالٍ تماماً للرئيس صدام حسين، تلك الجبهة التي شكلت على الدوام قلقاً للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها وباتت تهدد التوازن السياسي والعسكري لأصدقاء أمريكا في منطقة الشرق الأوسط البترولي.

إن في النظر إلى هذه الحرب في مختلف الاتجاهات نجدها تعطي انطباعاً حقيقياً على أنها واحدة من الحروب المدمرة إن لم تكن على الإطلاق رغم أن الكثيرون ـ وخصوصاً ممن يعشقون روح المغامرة والمقامرة ـ لم يدركوا بالفعل حجم أحوالها وكوارثها ونتائجها السلبية جداً التي من الممكن أن تلحقه بالمنطقة والعالم بأجمعه.

فنحن لا نستطيع أن ننفي حقيقة التفوق العسكري الأمريكي والمشاركين معها في التحالف، ولكن في نفس الوقت لا يمكن لأحد أن يلغي الدور العسكري العراقي وقدراته المذهلة خصوصاً وأن العراق يملك أقوى جيوش المنطقة، شكل هذا الأمر قلقاً للولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تبدي على الدوام قلقها من تنامي القوة العراقية حتى أصبحت تجهل أبعاد هذه القوة رغم أن الحسابات الدقيقة التي قدمها الخبراء العسكريون إلى البنتاغون تؤكد فيها استحالة بناء جيش عراقي قوي بعد ما شهده العراق من حروب وحصار على مدى سنين طويلة.. وقد انذهل العالم وقبلها الولايات المتحدة الأمريكية عندما رأوا تمكن العراقيين من تعزيز قدرات الأسلحة الهجومية بشكل كبير يمكنها من إقرار كلمتها في منطقة الشرق الأوسط، وهذه الظاهرة هي التي أقضّت مضجع أمريكا وجعلتها تفكر سريعاً في الحرب تفكيراً جدياً وعميقاً وكانت تتساءل يوماً

بعد يوم: ماذا لو بقي صدام حسين على رأس السلطة في العراق وهو يسعى إلى تطوير ترسانته الحربية بشكل مذهل وسريع؟!.

واجتمعت الآراء والأفكار كلها من أن الهدف الأول والأخير للولايات المتحدة مهما تبدلت الخطط وتنوعت الأسباب واختلفت فإن غزو العراق والحصول على ثروته النفطية الهائلة هي المحصلة النهائية، أما ما يذهبون إليه من الحجج والأقاويل والمبررات فهو خلاف الحقيقة ولا يمكن التسليم به أبداً.

إن السياسة الأمريكية ماضية دون أن يستطيع أحد إيقاف عجلتها الكبيرة لتثبت للعالم بأنها القوة العظمى الوحيدة وإمبراطورة العالم الجديد.

فمنذ البداية لم نفصل الصراع وحدَّة الأزمة عن وجود المصالح والدوافع الاقتصادية لأننا ندرك جيداً بأن الولايات المتحدة الأمريكية وشريكتها بريطانيا يضعان المسائل الاقتصادية في الصدارة من حيث الأهمية، لذا فإن مواطن الخصومة ومراكز الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق باتت معروفة ومقررة، ويستطيع الباحث المعاصر أن يجدها واضحة جداً ويعلق عليها وفقاً للتطورات الأخيرة التي شهدتها المنطقة العربية فصراع النفط سيصبح هو واقع الحال للدول التي تملك تلك الثروة.

ورغم الكثير من الاستنتاجات وما ستؤول إليه الأوضاع فإن المعارك لا زالت مستمرة وتزداد ضراوة كلما حاولت قوات التحالف الاقتراب من العاصمة «بغداد».

وقد نجحت أخيراً قوات التحالف بالوصول إلى أطراف مدينتي «النجف الأشرف» و«كربلاء»، ولا زال الأهالي هناك يقاومون ويبدون شجاعة كبيرة في التصدي للقوات المتقدمة، فالبيانات العراقية تؤكد تدمير العديد من الآليات على مشارف هاتين المدينتين المقدستين، وفي تطور لاحق للأحداث قامت الطائرات الأمريكية وحلفائها بتدمير مبنى الإذاعة والتلفزيون في بغداد فجر الأمس تدميراً كاملاً نجم عنه سقوط العديد من العاملين فيه بين جريح وقتيل، ولكن الإجراءات البديلة حالت دون توقف البث حيث واصلت الإرساليات بث برامجها المعتادة عبر سيارات متحركة ولا زالت مدينة «أم

قصر» صامدة تقاوم تقدم قوات التحالف حتى أطلق عليها اسم: مدينة المقاومة الأسطورية.

فقد بقيت صامدة بوجه قوات التحالف لسبعة عشرة يوماً متواصلاً رغم أنها كانت غير ذات أهمية في الحسابات العسكرية لقوات التحالف ولكنها أثبتت فشل تلك التكهنات وحيَّرت كبار قادة دول التحالف.

ورغم حصول محاولة التفاف للقوات المتحالفة من جهة «البصرة» لاحتواء المدينة إلا أنها لم تنجح تماماً في تطويق «أم قصر» ويبدو أنها حصلت فقط على بعض المواضع في هذه المدينة لتبقى «أم قصر» سداً منيعاً أمام تقدم قوات التحالف حتى لمجرد بضعة أمتار في العمق... وشهدت مدينة «الناصرية» هي الأخرى معارك عنيفة شاركت فيها المقاومة الشعبية وأبناء العشائر العراقية والمقاتلين تحت عناوين مختلفة، مما أثار ذلك دهشة واستغراب قادة التحالف بعدما كانوا يتوقعون أن يستقبلهم الأهالي في هذه المدينة بباقات الورد، مما جعلها تصدر الأوامر بقصفها جواً مع تكثيف القصف المدفعي لإرغام المدينة على الاستسلام وانهيار قوة المقاومة فيها أدى ذلك إلى سقوط مئتي جريح ومائة قتيل، وكانت هذه النسبة من الخسائر هي الأكبر ما بين المدن العراقية المقاومة لتقدم قوات التحالف.

أما بغداد، فقد استمر القصف الجوي والصاروخي على أحيائها طيلة الليل والنهار، تخلله بعض التوقف إلا أنها كانت تعود بعدها دوي الانفجارات المتلاحقة تهز بغداد بعنف، وقد شهد اليوم التاسع أيضاً بياناً للقيادة العراقية أعلنت فيه في الصباح الباكر تأكيدها على استمرار المعارك بضراوة على مشارف مدينتي «النجف الأشرف» و«كربلاء»، ويبدو من خلال تلك المواجهات العنيفة أن قوات التحالف تحاول أن تجد لها منفذاً لتمر من خلاله قواتها للسيطرة على مشارف الطرق المؤدية إلى «بغداد» كما أنها فتحت جبهات قتال أخرى في مدينة «البصرة» و«المثنى» وحول مدينة «كركوك» و«الموصل» والتي كانت تتواجد فيها وحدات كبيرة من قوات الحرس الجمهوري العراقي.

وأضاف البيان أن هذا اليوم قد شهد زيادة كبيرة في وتيرة القصف الجوي حيث

قامت الطائرات الأمريكية برمي قنابل زنة طنين وأكثر على القطعات العسكرية العراقية وهي تستخدم لأول مرة في المعارك.. واختتم الناطق العسكري العراقي البيان بالإشارة إلى وقوع عدة صواريخ أمريكية من نوع توماهوك على منازل المواطنين في العديد من أحياء بغداد الشرقية.

◆ أما اليوم العاشر: الأحد، 2003/3/30 م

فقد حصل انطباع لدى دول التحالف بأن الحملة العسكرية قد تشهد فشلاً ذريعاً وعلى وجه الخصوص في تحقيق أي تقدم عسكري ملحوظ على أرض الواقع، رغم ما تلحقه القوة الجوية للتحالف من دمار على الأرض إلا أن المعركة البرية كان يبدو من المستحيل تحقيق أي تقدم فيها يمكّن القوات المتحالفة من الوصول إلى مشارف مدينة «بغداد».

كما أثبتت الحقائق التي اتضحت أمام القادة البريطانيين مثلما باتت واضحة للأمريكان بأن فكرة الحرب الخاطفة السريعة أصبحت فاشلة لا تحقق أهدافها كما كان مرجواً... فلم يضع القادة العسكريين تلك المقاومة الباسلة للعراقيين وهم يدافعون عن مدنهم في الحسابات الميدانية، حتى جعل قوات التحالف تغير من استراتيجيتها الحربية في محاولة جديدة لعزل الشعب عن الجيش وعن القيادة العسكرية العراقية في ساحة المنازلة بعد أن عجزت الآليات العسكرية بمختلف أنواعها عن تحقيق أي إنجاز يمكن الإشادة به.

تلك الاستراتيجية الجديدة فوضت القوات العسكرية المتحالفة باستخدام كل ما تملك من القدرات العسكرية لإرهاب وترويع الناس من خلال قيامها باستخدام سياسة الأرض المحروقة والتي تم الكشف عنها من خلال الشواهد التي اتضحت معالمها بأنها بالفعل حرب من أجل المكاسب وليست من أجل التحرير وهي حرب بمنتهى القذارة وهو أقل ما يمكن أن توصف به، فقد شهدت مآسٍ وكوارث وويلات راح ضحيتها آلاف الأبرياء من المدنيين وآلاف أخرى من العسكريين.

لقد كان واضحاً بأن هناك تعتيم إعلامي وتزييف وكذب في نقل الحقائق إلى المجتمع

الدولي لكل ما يجري على أرض العراق، ولم يُستبعد من هذه الحرب استخدام الوسائل النفسية العنيفة التي تترك آثارها السيئة على الناس فقد كانت تستبيح استخدام كل شيء من أجل الغلبة والتدمير، لأنها حرب في حقيقتها قائمة على نوازع عدوانية بحتة، تخللها إصرار غريب على الانتقام، تلك الحرب التي سبق وأشرنا إلى مضمونها ونتائجها فإننا نؤكد بأن الخاسر الوحيد فيها هو الشعب العراقي، وكان العراقيون يأملون أن تتحرك الجماهير العربية والشعوب الإسلامية للتدخل وللقيام بدورها في نصرة إخوانهم العراقيين، فتبين أنهم شجعاناً في التعبير عن غضبهم بالتظاهرات ورفع الشعارات وهذا دأبهم دائماً عند اشتداد الأزمات.. فقد انتظر العراقيون أي دور إيجابي يمكن أن تقوم به الدول التي تؤمن بالسلام لتتحرك ضمائرها لإيقاف نزف الدم العراقي ولكن بلا جدوى. والعجيب في الأمر أن المراسلين العرب كانوا سباقين إلى نقل الأحداث المؤلمة والمشاهد المؤثرة بما فيها صور القتلى الملقون على قارعة الطرقات، والجرحى الذين لم تستوعبهم المستشفيات فضلاً عن اجتهادهم الكبير في نقل صور اللصوص وهم يحملون الكراسي والطاولات من دوائر الدولة.. أجل كان العرب والمسلمون سعداء بتلك المشاهد المؤلمة ولم يكن يهزهم بكاء ونحيب الأمهات المثكلات بالمصائب والهموم والجراحات.

هكذا هي دوماً أمة العرب كانت وستبقى قوية في رفع الشعارات لا يقف في وجهها أحد عندما تقدد وتستكر في الشوارع والساحات وهي تحمل اللافتات.. أجل نعلم أن هذا هو دأبهم ولم نفاجأ بدورهم.

فتلك الأمة لم تتحمل مسؤوليتها الكاملة تجاه قضاياها المصيرية لتصبح أمة هامشية تفرقها وتجمعها الكلمات، الكل فيها يهتف:

«وينك يللي تعادينا وينك يا وين»

و«طالعلك يا عدوي طالع من كل بيت وشارع»

والعدو واقف أمامهم يفتك بأبنائهم وإخوانهم وهم صامتون، أحياء ولكنهم ميتون وسنرى من جانب آخر من فصول هذه الحرب كيف سيكون لبعض الدول العربية دوراً

مخزياً بالتعامل مع أبناء الرافدين، وهم يحاولون يومياً أن ينهشوا لحومنا كالضباع ونحن أحياء.. أجل هذه هي الحقيقة اجتمع علينا مَنْ لا يرحمنا من الأعداء.. وقام بذبحنا الأشقاء... الكثير منهم أرعبوا أهلنا وعاثوا بأرضنا ظلماً وفساداً وكانوا أكثر فتكاً مما فعله بنا الغرباء إلا أن عزاءنا أن نلمم جراحنا... ونقول للوطن: سلامات.. يا وطناً تضم بين جانبيك دجلة والفرات.

◆ وفي اليوم الحادي عشر: الاثنين 2003/3/31م

كان العراقيون يستمدون العزم من صمود أبنائهم في مدينة «الفاو» و«أم قصر» الذين يقاومون تقدم جحافل قوات التحالف بشجاعة فائقة، صامدين في خنادقهم غير آبهين بالموت وهم يكبدون تلك القوات خسائر فادحة لم يكونوا ليتوقعوها أبداً، وأن الفرقة 11 والفرقة 51 لا زالت في المواقع الأمامية لم يتقهقروا ولم يتراجعوا بعد، وأن «أم قصر» عبّرت عن أسمى صور البطولة والتضحية، فقد استطاعت رغم كثافة القصف الجوي والصاروخي والمدفعي أن توقف تقدم القوات البرية للتحالف لسبعة عشر يوماً كاملاً، وكان الإعلام الغربي حريصاً على عدم إعلان حقيقة ذلك الصمود الأسطوري خشية أن يؤثر ذلك على معنويات جنود التحالف، رغم عدم وجود أي شكل من أشكال التكافؤ في القوة والإمكانيات العسكرية والتكنولوجية بين القوات العراقية المحاصرة في أرض «أم قصر» وقوات التحالف المهاجمة.

وشهد هذا اليوم إلى جانب المعارك الشرسة عمليات استشهادية كبّدت التحالف الكثير من القتلى والخسائر في الدبابات والدروع والناقلات لا سيما بعدما أعلن عن قيام (علي النعمان) بعملية استشهادية في قاطع «النجف الأشرف»، كما وتمكنت قوات العشائر في «الرطبة» و«القائم» من قتل العديد من القوات الأمريكية وأسر آخرين في الإنزال الفاشل التي قامت بها في غرب «الأنبار».

وسبّب زيادة العمليات الفدائية في مختلف أنحاء البلاد قلقاً ورعباً لقوات التحالف خصوصاً بعد أن تم قتل الأسرى بموجب الأوامر الصادرة من القيادة العليا للقوات

المسلحة العراقية. وعد التحالف هذا العمل حالة انتهاك لاتفاقيات جنيف للأسرى، وفي الحقيقة أن تلك الأوامر كانت صادرة من الرئيس «صدام حسين» شخصياً بقتل كل جندي من قوات التحالف يقع أسيراً بيد القوات العراقية أو تنظيمات المقاومة الشعبية مع تحديد مكافآت مجزية لمن يقوم بذلك، وكانت الخطة من وراء ذلك العمل إنزال الرعب بين صفوف جنود التحالف وهي واحدة من تكتيكات الحروب التي يستباح فيها كل شيء لطالما كانت منذ البداية حرب قذرة، فليس فن استخدام القتل حكراً على طرف دون غيره، وهي حالة نعبّر عن دموية هذه الحرب الملعونة.

أما اليوم الثاني عشر: الثلاثاء، 2003/4/1م

شدّدت فيه قوات التحالف على الإعلام بغية عدم نشر الحقائق، حتى وصل الأمر بأن قامت القوات الأمريكية بقصف مركز التجمع الإعلامي في بغداد وقتل فيها عدد من الصحفيين ومنهم مراسل قناة الجزيرة القطرية «طارق أيوب»، كما أظهرت للعالم تشكيكاً بالإعلام العراقي ووصفته بالكذب والمخادعة خصوصاً لتلك البيانات والتصريحات الصحفية الملتهبة التي كان يذيعها وزير الثقافة والإعلام العراقي «محمد سعيد الصحاف»، كما قامت قوات التحالف بضرب جميع وسائل الإعلام العراقية بشكل مكثف إلى جانب استمرار المحاولات المتكررة للوحدات العسكرية للتحالف لاختراق المدن العراقية من جهة الصحراء خصوصاً تلك المدن القريبة من بغداد، مع زيادة القصف الصاروخي على وحدات الحرس الجمهوري، وفي بيان صادر عن القيادة العسكرية العراقية قرر الرئيس العراقي «صدام حسين» صرف مكافأة مجزية لمن يقتل جندياً من قوات التحالف أو يُسقط طائرة أو صاروخاً أو يدمر دبابة أو مدرعة أو ناقلة جنود.

وجاء ذلك البيان على خلفية التهديدات التي أعلنتها القيادة الأمريكية على إثر قيام الجنود العراقيون بقتل أسرى قوات التحالف.

ورغم شدة المعارك وضراوتها إلا أنها لم تؤثر على الأعمال الخدماتية لا سيما الماء

والكهرباء وعمل محطات تعبئة البنزين، فكلها لا زالت مستمرة بشكل اعتيادي دون زحام أو إرباك وفي نفس الوقت فإن الأوضاع الأمنية لا زالت هي الأخرى تحت السيطرة التامة للسلطة المركزية في بغداد.

وكانت البيانات العسكرية واللقاءات الصحفية لوزير الإعلام والتجارة مستمرة وذات طابع تكتيكي مؤثر لدعم معنويات الشعب والجيش وتؤكد على استمرارية الصمود والمقاومة.

وفي رسالة للرئيس «صدام حسين» للشعب العراقي يوصيه بالحزم وعدم السماح لقوات التحالف بدخول بغداد واختراق أسوارها. ومع ذلك فإن الطائرات لا زالت ترمي آلاف الأطنان من القنابل الحارقة على بغداد وبقية المدن العراقية.

وتمكنت قوة من المارينز الأمريكية الاستيلاء على جسر «السيدية» من جهة «الكرخ» وكانت تطلق النار عشوائياً على أي جسم يتحرك بامتداد مفرق «الدورة» و«المصفى» جنوباً وحتى جسر «البياع» شمالاً. وقد قامت تلك القوة بحرق العديد من المركبات المدنية إلى جانب الدروع العسكرية العائدة لقوة عراقية وصلت لصد الإنزال إلى جانب كون قوات المارينز الأمريكية قد قامت بإنزالات متفرقة في «النهروان» و«الرستمية» و«العبيدي» على طريق «بعقوبة ـ بغداد» القديم فضلاً عن استمرار القصف العنيف على قوات الحرس الجمهوري التي بدأت بالتراجع إلى قلب العاصمة بغداد.

وقد أصبحت مدينة «البلديات» و«بغداد الجديدة» و«الكمالية» تجمعاً دفاعياً للعديد من الوحدات العراقية المنسحبة ومركزاً مهماً لإطلاق صواريخ «أرض أرض» على قوات التحالف لا سيما أن غالبية المنصات سليمة لكونها كانت مخبأة بين منازل المواطنين والمنتزهات التي تمتاز بكثافة الأشجار.

فقامت طائرات التحالف بقصف هذه المنصات الصاروخية في تلك الأحياء السكنية.

كما شهد هذا اليوم معركة تطهير طريق «المعمودية ـ اليوسفية» وامتازت معركة «اليوسفية» بكونها من أشد المعارك ضراوة حيث قامت قوات التحالف بتنفيذ سبعة

إنزالات جوية على طريق «الحلة» من القوات المحمولة وكان قوام كل إنزال حوالى ثلاثة آلاف جندي، ويبدو أن تلك الإنزالات هي التي مهدت لمعارك «الدور ـ السيدية» واختراق جسر «الجادرية».

◆ اليوم الثالث عشر: الأربعاء 2003/4/2م

شهد هذا اليوم إنزالاً جوياً كبيراً لقوات التحالف في منطقة «السيدية» قرب جسر «البياع» السريع وقد حدثت معركة كبرى بين الجانبين على طريق «الحلة ـ بغداد».

وكان آثار الدمار الذي خلفته المعركة من آليات ودبابات محترقة وجثث مفحمة شاهداً حياً على عنف وشراسة القتال.

وأعلن البيان العسكري العراقي إشادته بتلك المعركة وما قدمه الجيش العراقي من إمكانيات قتالية عالية.

وكادت قوات التحالف أن تصل إلى جامعة «بغداد» في منطقة «الجادرية» في جانب «الرصافة» المقابل «للسيدية» لو قدر لهم أن يعبروا الجسر ولكن القوات العراقية استبسلت في منعهم واستماتت لإيقاف تقدمهم.

وشهد هذا اليوم أيضاً إنزالاً جوياً للقوات الأمريكية على مطار «بغداد» ومعارك ضارية في «أبو غريب» و«العامرية» وقد استمرت تلك المعارك لعدة أيام مع انقطاع التيار الكهربائي في بغداد.

سبقه قبل يومين هجوماً عنيفاً على منظومة الاتصالات في «السنك» و«المأمون» و«الأعظمية» وأعيد قصفها من جديد في هذا اليوم، وعاودت الطائرات الأمريكية قصفها للأحياء السكنية في «الدورة» و«المنصور» و«الحرية» و«الشعلة» و«الزعفرانية» و«الأعظمية» و«البلديات» و«خان بني سعد» واستخدم في القصف قنابل الانفلاق العنقودية التي ألحقت دماراً كبيراً بالمنازل وقتلت المئات من المواطنين الذين حاولوا الفرار من منازلهم عبر الطريق المؤدي إلى «بعقوبة» القديم.

كما قامت الطائرات الأمريكية بقصف محطات توليد الطاقة الكهربائية في محاولة

لشلها دون تدميرها من خلال قيام هذه الطائرات برمي كرات أو أقراص خاصة تحتوي على خيوط كاربونية تعمل على إيقاف الشبكة عن العمل.

◆ اليوم الرابع عشر: الخميس 2003/4/3م

نفّذت القوات الأمريكية إنزالاً جوياً على منطقة «الرستمية» بحوالي ثلاثين مدرعة متجهة إلى «الزعفرانية» جنوب معسكر «الرشيد». فقامت جماعة من الفدائيين بمشاغلتهم بالأسلحة الخفيفة وقاذفات الدروع، ولم تنجح عملية التصدي لهذا الإنزال حيث تمكنت القوات الأمريكية من تحصين المكان الذي سيطرت عليه في معسكر «الرشيد»، تبعتها عدة إنزالات أخرى لمحاصرة «بغداد» والذي مهد له تصريح مفاجئ وغريب لوزير الدفاع العراقي «سلطان هاشم» عندما أعلن بأن الأمريكيين سيصلون إلى «بغداد» بعد خمسة إلى عشرة أيام، ثم ظهر الرئيس «صدام حسين» ثانية في معركة «اليرموك» عند ساحة النسور ثم «المنصور» فـ «الأعظمية» قبل أن يختفي نهائياً يوم الجمعة 4/11.

◆ اليوم الخامس عشر: الجمعة 2003/4/4م

شهد قصفاً وحشياً لطائرات التحالف على «بغداد» سبب هلعاً كبيراً للمدنيين لا سيما على الأحياء السكنية التي تراجعت إليها بعض الوحدات العسكرية للجيش العراقي في «الدورة» و«المنصور» و«السيدية» و«الكمالية» و«البلديات» و«الأعظمية» و«كرادة مريم»....

وعاودت طائرات التحالف قصفها ليدالة «الأعظمية» و«العلوية» و«الطالبية» و«السنك» و«المأمون»، فضلاً عن قصف مبنى الإذاعة والتلفزيون من جديد مبكراً من صباح هذا اليوم، كما وركزت تلك الطائرات على قصف مداخل القصر الجمهوري وجرت معارك عنيفة على جسر «الجمهورية» وفي «الصالحية» بالقرب من أسواق «28 نيسان» وكراج «العلاوي»، وكان يبدو من مناورات قوات التحالف والإنزالات المديدة التي قامت بها في مناطق عدة من «بغداد» بأن دخولها إلى العاصمة سيكون خلال الأيام القادمة خصوصاً

بعد إصرار قوات التحالف على احتلال المطار ومحاولة احتوائها وعزلها عن ألوية الحرس الجمهوري والفدائيين.

ورغم كل هذه المحاولات إلا أن تلك القوات لم تتمكن بعد من حسم المعركة فعلياً حيث لاقت مقاومة كبيرة من ألوية الحرس الجمهوري أجّلت محاولة تلك القوات من الدخول للمعركة الحاسمة في بغداد، خصوصاً بعد أن تمكنت القوات العراقية من فرض سيطرتها على المطار وكبدت قوات المارينز خسائر كبيرة بين قتلى وجرحى.

ما دفع بالأمريكيين للتفكير بإيجاد الخطة المناسبة لاحتلال المطار وإخراج قوات الحرس الجمهوري المتحصنة فيها داخل أروقة وبنايات المطار، وكان لاستمرار صمود الرجال في «أم قصر» و«الفاو» و«البصرة» و«ذي قار» قد رفع من معنويات باقي الوحدات العسكرية العراقية الأخرى لا سيما الحرس الجمهوري والفدائيين المتجحفلين في المطار.

وفي المساء نجحت القوات الأمريكية بإنزال عسكري في معسكر «الرشيد» والكلية العسكرية في محاولة لتطويق «بغداد» مما دفع بعض الوحدات العراقية إلى التراجع تحت قصف جوي شديد.

◆ اليوم السادس عشر: السبت 2003/4/5م

ظهر الرئيس العراقي «صدام حسين» في «بغداد»، واحتشد حوله المواطنون في مناطق عدة «كالمنصور» و«الأعظمية» و«شارع حيفا».. ونقل التلفزيون العراقي تلك الجولة والتي ظهر فيها الرئيس «صدام حسين» قوياً شديد البأس إلى جانب ظهور العديد من المواطنين وهم يلوحون له بالنصر.. والبعض يهرول نحوه يحييه بالهتافات والأهازيج الشعبية ومنهم مَنْ تمكّن من مصافحته ومنهم مَنْ عانقه ببكاء وكأنهم يودعون الرئيس للمرة الأخيرة قبل أن يختفي عن الأنظار وتسقط حكومته إلى الأبد.

وبالفعل كان هذا هو الوداع الأخير لصدام حسين حراً قبل أن تعتقله قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية.

واستمرت المعارك وكان أهمها معركة المطار الحاسمة حيث لا زالت معنويات وحدات الحرس الجمهوري عالية ومتأهبة لمنع أي اختراق تحاول أن تقوم به قوات التحالف مهما كان حجم التعرض.

وفي الحقيقة يجب أن لا نغفل استمرار صمود المقاتلين العراقيين في «الفاو» و«أم قصر» وهم بذلك يعطون انطباعاً للشعب بأنهم يثأرون للقتلى والجرحى بل وحتى زاد من معنويات المقاومة الشعبية في التصدي لمحاولات التحالف في «البصرة» و«الناصرية» و«السماوة» و«النجف» و«كربلاء» وباقي المدن العراقية الأخرى، حيث اتضح من خلال هذه المقاومة الوطنية إصرار العراقيين على عدم الاستسلام وهذا ما أثار قلق ومخاوف قادة التحالف من إمكانية فشل خطة الحرب، ولولا حصول الخيانات والتخاذل من بعض القيادات العسكرية العراقية المهمة لما عثرت على الطريق المؤدي إلى بغداد.

وهذا أمراً ليس بمستغرب فهناك دوماً الخونة والشرفاء في جميع الحروب التي حصلت في التاريخ، مثلما هناك جبناء وشجعان منهزمون ومنتصرون...

ولا بد أن نذكر ونحن نسرد ما حصل في هذه الملحمة الكبرى بأن للاستخبارات الأمريكية دوراً مهماً بتمكنها من اختراق عمق القيادة السياسية والعسكرية العراقية، وهذا ما يفسر بوضوح حصول تلك الخيانات المؤلمة التي زعزعت قوة الجيش العراقي ودفعته إلى الانهيار السريع عكس ما كان متوقعاً..خصوصاً الانهيار المفاجئ للفرق والألوية العسكرية المعول عليها في حماية «بغداد»، التي كان يراهن عليها «صدام حسين» كثيراً نظراً لحجمها وقوة تسليحها والخطة التي تم بموجبها نشر المقاتلين... لتشكل حزاماً قوياً حول مدينة «بغداد» ومنها وحدات اللواء العاشر الذي كان يعد أقوى لواء مكلف بالدفاع عن «بغداد».

وللأسف فهوقد دُمّر جراء القصف الجوي العنيف الذي لم تشهد حرباً من الحروب العالمية قصف لواء عسكري مثلما أُنزل من حمم النيران على هذا اللواء بمئات الأطنان من القنابل المختلفة الأنواع والأحجام.

وبالرجوع إلى معركة المطار، كانت قد بدأت يوم الأربعاء وتعززت في يوم الخميس

وحُسِمَت المعركة في البداية يوم السبت لصالح الجيش العراقي، إلا أن الإنزال الذي قامت به قوات التحالف يوم الأحد بعد أن سارعت لاحتواء الموقف من خلال توجيه ضربة نووية محدودة تسمى بالضربة التكتيكية تحدَّث عن هولها شهود عيان نجوا من جحيم المعركة.

واستقر الموقف العسكري في المطار لصالح قوات التحالف. وقد أظهر هذا التفوق الذي حصل يوم الأحد كذب التصريحات التي أدلى بها وزير الثقافة والإعلام «محمد سعيد الصحاف» والذي كان قد زار المطار يوم السبت وقد كانت بالفعل تحت السيطرة التامة للقوات العراقية إلى أن انقلبت الأحوال سريعاً.

وقد نقل الناجون من المعركة تساؤلهم باندهاش عن كيفية ذوبان اللحم عن العظم بلحظات جراء انفجار كبير لكرة نارية أذابت حتى الآليات والدروع.

إن تفحّم الجنود العراقيين المتحصنين في مواقعهم داخل المطار تؤكد أقوال ما ذهب إليه الشهود ممن نجوا من المعركة إثر هروبهم من تلك النيران التي كانت تأكل أجساد الجنود.

وقد تحدث هؤلاء الشهود عما شاهدوه من هياكل عظمية لجنود تساقط لحمهم المحترق عن أجسادهم، وهذا يؤكّد بأن هناك سلاحاً مجهولاً قد استخدم لإبادة الجنود العراقيين المتحصنين لحماية المطار ويبدو أن هذا الأمر بات مؤكداً عندما قامت القوات الأمريكية بمنع الصحفيين من تصوير المطار إلا في أماكن تم تحديدها مسبقاً. إنها الحرب كما وصفناها من قبل بالقذرة، وهذا يعني أنه قد تم فيها استخدام أسلحة **محرمة دولياً** نجهل تكنولوجيتها ومدى تطورها. إلا أن التاريخ سيكشف حتماً نوعية تلك **الأسلحة** فهذا شأن التاريخ دوماً مهما كانت قوة الكتمان والسرية حول هذا الموضوع، وسقوط مطار «بغداد» في 7/ قد فتح الطريق لحسم سقوط «بغداد» ودخول قوات المارينز إلى وسط العاصمة في 4/ نيسان من عام 2003م.

❖ اليوم السابع عشر: الأحد 2003/4/6م

شهد هذا اليوم حسم معركة المطار، وقامت الطائرات الأمريكية بشن غارات جوية كثيفة على مناطق «راغبة خاتون» و«حي سومر» و«الشعب»، وكانت الجثث المرميَّة على قارعة الطرقات كثيرة لم تجد من يدفنها، ويحزننا كثيراً أن بعضها قد نهشتها أسنان الكلاب السائبة، وازدادت طوابير الناس المندفعين للهرب من بغداد جراء ما ألحقته قصف الطائرات من دمار وخراب، فكان الهروب مستمراً طوال أيام المعارك بشكل جماعي إلى مدن ديالى وسامراء، وقامت قوات التحالف بالكثير من الإنزالات الجوية بغية فرض السيطرة على مداخل «بغداد» من كافة المحاور، وشهدت مؤسسات الدولة العراقية انهياراً شاملاً بشكل مفاجئ بعد قصف القصر الجمهوري ونجاح الإنزال الجوي فيه وشهد معه إطباقاً عسكرياً أمريكياً كاملاً على جانب «الكرخ» بأكمله.

وقامت الطائرات الأمريكية بتدمير مبنى الإذاعة والتلفزيون بشكل نهائي وتحول البث الإذاعي من تردد الموجة AM إلى التردد الموجي FM والذي لم يستمر سوى يومين فقط حيث انقطع في تمام الساعة 10:20 ليلة الأربعاء.

وصاحب انقطاعه - بصدفة غريبة - بانتهاء الخطاب الأخير للرئيس العراقي «صدام حسين» وعزف السلام الجمهوري.

وكان ذلك الخطاب هو الثالث والأخير خلال الحرب، فضلاً عن أن هذا اليوم شهد أيضاً آخر بيان رسمي عسكري صادر من وزارة الثقافة والإعلام العراقية برقم 20، والغريب أيضاً أن «الصحّاف» في هذا البيان لم تطرق كما هي العادة في البيانات السابقة عن خسائر قوات التحالف التي كان يسميها (بالعلوج) وبدى واضحاً أن كل شيء قد انهار وأن قوات التحالف تتقدم بسرعة لاحتلال بغداد. وأن المقاومة التي كان يعول عليها الرئيس قد انهارت بالفعل. وكان ذلك محل جدل وريبة ودهشة لدى الجميع لا سيما البغداديين، والكل أخذ يتساءل: لماذا هذا التدهور السريع الذي حصل للوحدات العسكرية المدافعة عن «بغداد» و«أم قصر» و«الفاو» التي صمدت لوحدها سبعة عشر يوماً دون أية تعزيزات؟!!

وهنا بدأ الناس يتكلمون عن الخيانة والصفقات السرية والروايات بمختلف أشكالها والتي تؤكد أن بغداد قد بيعت بثمن رخيص.

ومع تلك الساعات الأخيرة للمعركة... ما يزال الناس يهربون عبر طريق «بعقوبة» وطريق «الموصل» لأنهما الوحيدين اللذين لم يصل إليهما قوات التحالف بعد.. وكان منظر الشارعين الرئيسيين المؤديان إلى تلك المدينتين تعجان بعشرات الآلاف من السيارات المليئة بالعوائل. فقد كان هول الصدمة والترويع والوسائل النفسية التي استخدمتها قوات التحالف فوق طاقة التحمل ولا يمكن وصفها إلا بالمؤلمة والمحزنة حقاً.

وإذا أردنا أن نتحدث وفق أي مقياس من مقاييس تلك المعركة... ووضعنا أية دولة عربية أو إسلامية أو أية دولة أوروبية بديلاً عن العراق. فإننا على يقين أنها لم يكن بمقدورها الصمود والمقاومة أفضل مما قدمه الشعب العراقي رغم معاناته وجراحاته. وإن التضحيات الجسام التي قدموها في صمودهم الأسطوري هي ملحمة عظيمة من ملاحم البطولة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، وستبقى تلك الملحمة الأسطورية وسام مجد لهذا الشعب العظيم الذي قارع ببسالة أعتى جيوش العالم التي تحالفت ضده وهو في صف المنازلة بلا مناصرة أو صديق أو حليف يؤازره.

فإذا كانت قوات التحالف قد حققت نصراً عسكرياً. وهذا ما لا ننكره أو ننفيه. فإن الشعب العراقي قد حقق نصراً أعظم منه بكثير، لأنه انتصر بإيمانه ومبادئه وقيمه الأخلاقية وبعزة نفسه وهو واقف بلا انكسار في ساحة المعارك وقد تكالبت عليه قوى الاستكبار العالمي.

فشعب العراق لا يمكن أن يسقط أرضاً مهما ازدادت عليه المحن والكوارث، فهو ينهض ويجدد نفسه ليحيا قوياً معافى وهذا شأنه منذ أكثر من ألف وستمائة سنة من عمر الزمن. إن التاريخ شاهد حي على عظمة هذا الشعب ومن لا يعرف الشعب العراقي جيداً فليقرأ تاريخه.

◆ اليوم الثامن عشر: الاثنين 2003/4/7م

قامت الطائرات الأمريكية بقصف المكان الذي خصص لاجتماع الرئيس «صدام حسين» مع القيادة العسكرية في مدينة «المنصور» تعديداً خلف مطعم الساعة في شارع «14 رمضان»، وقد دمر المكان بالكامل إلا أن «صدام حسين» تمكن من الخروج من بين أنقاض البيت الذي تهدم نتيجة القصف.

وسبب ذلك الأمر صدمة كبيرة للرئيس لأن ذلك المكان كان سرياً لا يعرفه أحد سوى المجتمعين فيه، إلا أنه يبدو أن الجواسيس قد أحاطوا به، عندها أدرك «صدام حسين» أنه أمام حقيقة مُرة بأن السيطرة على مقاليد السلطة أصبحت صعبة وقد يزول كل شيء في لحظات بغفلة من أمره.

في ذلك اليوم لم يكن الناس على علم بأن الحرب قد أوشكت على النهاية مثلما أدرك ذلك «صدام حسين»، لذا نجدهم يسارعون إلى حفر الآبار في بيوتهم ليعطوا لأنفسهم فرصة للصمود فترة أطول، وكان «صدام حسين» عنيداً شديد البأس لم ينهار بعد رغم الكثير من الخيانات وهزيمة الرجال من حوله.

وحدثت معركة القصر الجمهوري و«المنصور» و«معركة التويثة» جنوب معسكر «الرشيد» و«الطاقة الذرية».

كان يبدو أن الهرج والمرج قد يتجاوز ما يمكن أن يتصوره المرء في أنحاء «بغداد» بعد اضطراب الأوضاع والانهيار المفاجئ للقوات المسلحة المكلفة بحماية «بغداد» بخطوطها الأربعة، وانتشر بين الناس خبر مفاده أن الرئيس صدام حسين قد قُتل مع نجله «عدي» أما «قصي» فقد تمكن من الهرب مع بعض أفراد عائلته إلى سوريا، وتبين لاحقاً أن الخبر كان مجرد كذبة، وأن «صدام حسين» لا يزال حياً ولم يقتل في القصف، وأكد ذلك «صدام» بنفسه عندما ظهر في مدينة «الأعظمية» يوم الأربعاء 4/9 ليعلن عن استمراره بالمقاومة، وبعدها اختفى كما اختفى الحزب وأجهزة النظام كله، وهو أمر يبعث على الدهشة حقاً، فقد اختفت كل تلك التنظيمات الحزبية والأمنية والعسكرية لأقوى نظام سياسي في العالم، صحب ذلك الاختفاء ضياع الدولة ومؤسساتها بالكامل، مما ترك

فراغاً كبيراً استغله اللصوص والغادرين والحاقدين على العراق وأهله، لتبدأ صفحة جديدة ومأساة أخرى تضاف إلى رحلة هذا الشعب مع الألم والحزن والمعاناة والموت المجاني.

◆ اليوم التاسع عشر: الثلاثاء 2003/4/8م

كان يوم الانهيار الحقيقي للدولة العراقية وسقوط النظام السياسي في بغداد. حيث تمكنت قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية من التمركز داخل القصر الجمهوري الرئاسي في منطقة كورنيش «الأعظمية» شمال مدينة «بغداد» وفي كلية بغداد اللاهوتية التي عرف فيما بعد أن الأمريكان قد بنوها قبل أكثر من خمسين عاماً وكان قد بني بجوارها كنيسة، بالإضافة إلى تمركز قوات أخرى في الجزيرة السياحية على طريق «الفحامة - الراشدية» فضلاً عن تمركز مجاميع أخرى من هذه القوات العسكرية في جنوب «بغداد» تحديداً في معسكري «الرشيد» و«ملعب الشعب الدولي». أما من جهة «الكاظمية» فقد تمركز قوات التحالف على طريق «الموصل» عند بوابة «بغداد» الشمالية حتى منطقة معسكر «التاجي». وكان من المؤلم عند المرور بشوارع «بغداد» رؤية العديد من الدبابات والآليات العسكرية العراقية محترقة مع طواقمها.

إن الاستراتيجية الحربية التي استخدمتها قوات التحالف كانت ناجحة جداً خصوصاً الإنزالات الجوية لقوات المارينز الأمريكية على العديد من المناطق حول مدينة «بغداد»، مما أسهم في إرباك الوحدات العسكرية العراقية وكان له دور كبير فيما وصلت إليه تلك القوات من انهيار، كما كان لوقع انتشار إشاعة احتمال قيام الولايات المتحدة الأمريكية باستخدام القنبلة النووية المحدودة لضرب مدينة بغداد أثر نفسي بالغ على معنويات الجيش وحتى الناس في الأيام الأخيرة قبل معركة الحسم.

فضلاً عن شدة القصف لطائرات B52 والقنابل العنقودية والقنابل ذات القوة

الانفجارية الصاعقة التي تحدث ارتجاجاً وعصفاً مخيفاً للغاية أثارت هلع الجميع، بالتأكيد إن كل ذلك ساهم بتسارع الخطى نحو معركة الحسم في بغداد وإلى انهيار السلطة المركزية للرئيس العراقي «صدام حسين».